



الكتاب
الشهري

47

2007

أفاق
ثقافية

الأساطير والخرافات عند العرب

د. محمد عبد العيد خان

مكتبة المهتدين الإسلامية

آفاق ثقافية

سلسلة شهرية تصدرها وزارة الثقافة السورية تهدف إلى استعادة كتب هامة قديمة؛ مثلما تنشر الجديد في الفكر والأدب الحديث.

صدر في هذه السلسلة:

- الهوى والشباب
بشارة الخوري
الأختل الصغير
- انتصار إراسموس ومأساته
تأليف: ستيفان تسفايغ
ترجمة: محمد جديد
- مديح الحماسة
تأليف: إراسموس فون روتردام
ترجمة: محمد جديد
- تمرد الجماهير
تأليف: خوسه أورتغا إي غاسيت
ترجمة: علي إبراهيم أشقر
- الأساطير والخرافات عند العرب
د. محمد عبد المعيد خان
- يصدر:
الفراغ والملء
- تأليف: فرانسوا شينغ
ترجمة: عدنان محمود محمد
د. صلاح صالح



السعر (٥٠) ل.س



الأساطير الخرافية
عند العرب



آفاق ثقافية - العدد (٤٧)

آذار ٢٠٠٧

صدرت الطبعة الثالثة لهذا الكتاب

عام ١٩٨١ عن دار الحدائثة

بيروت - لبنان

وهذه الطبعة الرابعة

د. محمد عبد المعيد خان

الأساطير و الخرافات

عند العرب



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ٢٠٠٧

فهرست تفصیلی لموضوعات الكتاب

صفحة

الباب الأول

في منهج البحث

- ١٠ الفصل الأول : في مصادر الأساطير
 تحديد معنى الجاهلية - قلة المصادر - منهج البحث -
 ماذا يراد بالأسطورة
 ٢٢ الفصل الثاني : في قابلية العقلية العربية لتوليد الأساطير
 العربي ليس بعار من الخيال - خياله تصوري لا إبداعي - الأسطورة
 العربية مبنية على تصور لا على خيال - كان للعرب مثل أعلى

الباب الثاني

في المذهب الحيوي

- ٥٠ الفصل الأول : نظرية المذهب الحيوي
 تعريف المذهب الحيوي - آثاره عند الساميين
 ٥٤ الفصل الثاني : المذهب الحيوي عند العرب
 معنى الحياة والروح عند العربي الجاهلي - الأساطير التي تدل على
 وجودها عند العرب

الباب الثالث

المذهب الطوتمي

- ٦٤ الفصل الأول : نظرية المذهب الطوتمي
 تعريف الطوتمية - اختلاف العلماء فيها

- ٧٠ الفصل الثاني : المذهب الطوتمى عند العرب
النوعية الطوتمية التى توجد عند العرب - لا أثر للطوتمية الاجتماعية
عند العرب - الطوتمية الدينية أيضاً تختلف عن الأمم الأخرى
- الباب الرابع
آلهة العرب
- ٩٤ الفصل الاول : نظرية بدء الوثنية فى الرواية والدراسة
اختلاف الرواة فى بدئها - لا أثر لعبادة السلف عند العرب ...
- ١٠٦ الفصل الثاني : الوثنية المحلية فى البلاد العربية
الوثنية المحلية تمثل العقلية العربية فى جميع مظاهر الخيال التصورى
- ١١٦ الفصل الثالث : الوثنية الخارجية فى البلاد العربية
الوثنية الخارجية صورة تقليدية للوثنية البابلية - تحليل صفات
الأصنام التى عبتت فى الحجاز ونجد من ناحية اللغة والروايات ...
- ١٤٣ الفصل الرابع : تصور الإله عند العرب
- ١٤٤ الفصل الخامس : الإله فى عصر ما قبل التاريخ
كلمة الاله كانت تستعمل قبل التاريخ
- ١٤٦ الفصل السادس : الإله فى عصر التاريخ
تاريخ تصور الاله عند اليهود والنصارى والعرب الجاهلية إلى
ظهور الاسلام
- ١٥٨ الفصل السابع : أسطورة الخلق والحياة بعد المات
العربى الجاهلى لم يعرف الحياة بعد المات

مقدمة

بعد ما التحقت بالجامعة المصرية ، وواقفت لجنة كلية الآداب على تقديم الرسالة لإجازة الدكتوراة ، أمرني أستاذي الجليل السيد أحمد أمين أن أقدم رسالة في موضوع الأساطير العربية قبل الإسلام ؛ فنشطت نفسي لهذا الموضوع لما فيه من بحوث علمية تؤدي إلى تمييز ما دخل في الأحاديث والتاريخ الإسلامي من الأفكار الجاهلية على يد كعب الأخبار ، وعبيد بن شريفة ، ووهب بن منبه وغيرهم ؛ ولأنه أيضاً يؤدي إلى توضيح بعض الغموض الملابس للعقيدة الجاهلية . فلما أخذت أبحث تحت مراقبة الدكتور طه بك حسين تبدي لي اختلاف واضطراب بين أقوال العلماء ، ورأيت آراء الباحثين الذين سبقوني في تناول بحوث هذا الموضوع تهجم على العقيدة الإسلامية من كل صوب . وإذ كنت أبحث موضوعي بحثاً علمياً ، فقد تماشيت أن أدخل في نقاش ديني إلا بقدر ما يتطلبه الإيضاح العلمي . فلا يظن ظان أنني درست هذا البحث تحت شعور ديني من قبل .

ومما لاشك فيه أن البحث دلتني إلى عدة نتائج تفيد في إزالة ارتياب الذين ينتقدون العقيدة الإسلامية ؛ ولذلك أصبحت الرسالة التي كانت محصورة في الأدب الجاهلي كالتوطئة للدراسة العقيدة الإسلامية . فيجمل بي أن أقدم هنا تلك النتائج التي لم تكتب في ذات الرسالة لعدم تعلقها بالبحث .

قد الناقدون العقيدة الإسلامية ، وذهبوا في بحثها مذاهب شتى ، فمنهم من درسها من الناحية الفلسفية التي طرأت عليها والتي دعت إلى دخولها في الإسلام ومقتضيات المصور ، ومنهم من بحثها من الناحية التاريخية التي تحيط بها ؛ فذهب بعض باحثي المدرسة الأخيرة إلى أن فكرة التوحيد وليدة طبيعة البلاد العربية ، وقال بعضهم إنها مأخوذة من اليهود والنصارى ، وقيل أيضاً إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأت بشيء جديد ، بل رفع شأن أحد الآلهة التي كانت تكبر وتعبد من قبل . ولكن البحث في هذه المقالة هدانا إلى أن تقول إن العربي العارى عن التخيل في عصر البداوة لم يتصور ما وراء الطبيعة ، ولم يتخيل حياة بعد الممات ، ويرى القارى ذلك منفصلاً مبيناً في فصل تحليل العقلية العربية من هذه الرسالة ، كما أنا تقول إن طبيعة البلاد لم تدع إلى نشوء فكرة التوحيد في هذه البقعة ، وإنما دعت إلى الدهرية وتقديس الحجر والحيوان كما بينا هذا في الباب الثاني والثالث . وليست فكرة التوحيد موروثه عن اليهود والنصارى كما يظن ، بل هي طبيعة كل نفس ذات شعور ، ويؤيد ذلك روايات اليهود والنصارى التي اتفقت على أن إبراهيم كان يبحث عن الخالق الحقيقي منذ حداثة سنه ، والعربي البدوي أيضاً لم يعبد مظاهر الطبيعة في مبدأ الأمر كعبادة الفرس للنور والظلام ، ولم يتم تماثيل السدنة وشيوخ القبائل كعبادة الهنود للبراهمة والملوك (انظر نظرية بدء الوثنية) ، حتى إذا تسلطت عليه الوثنية البابلية ظهرت ميوله الطبيعية في الدهرية والوثنية ، فأصبح الدهر وصفاته من ميزات جميع الآلهة البابلية التي كانت تعبد في العرب . ويظهر هذا جلياً من استقسام العربي عند جميع الأصنام . فالعقلية العربية كانت تعتقد من أول نشأتها — مثل أم الشرق الأخرى — في كون المادة أزلية وعلة لجميع ما يناله في الحياة ، ولكن عقلية العربي لم ترتفع إلى تقسيم هذه العلة في النور والظلام كما تقسمت عند الفرس والبابليين . ولما اشتهرت الأديان في أنحاء شبه جزيرة العرب امتزجت

عقلية بالآراء اليهودية والمسيحية ، وأخذت فكرته تنتقل من عبادة آلهة مادية إلى عبادة آلهة إنسانية (انظر تصور الإله عند العرب) . وكان هذا أقرب إلى فهم العربي الوثني من فهم إله معنوي .

كان العربي يشعر بوجود إله قبلما تطراً عليه هذه العقائد الجاهلية (انظر الوثنية الخارجية) ، وكذلك الفارسي والهندي والتوحش في جنوب أفريقيا وأستراليا ، يقر كل هؤلاء بوجود الله ، إذ يعبدون النور والظلام والمظاهر الطبيعية والحيوان الطومى ، معتقدين أنه مظهر من مظاهر العلة الأولى ، فالإقرار بوجود الله طبيعة كل نفس فطرت على الإنسانية ، وكل رجل — سواء أكان متوحشاً أو متحضراً ، وسواء أكان عالماً أو أديباً — إذا تبصر في أمور حياته اليومية ، وإذا راجع تاريخ الأمم ، وإذا حاول أن يعرف كنه ذات الحرارة والنور ، وإذا تحير في تفسير العلة وارتباطها بالمعلول ، وإذا سكر بتأثير نغمات الموسيقى — يشعر بوجود مدبر ذى علم واسع وراء هذا الترتيب والنظم الطبيعية العظيمة ، وهو لا يحتاج في ذلك إلى دليل فلسفى ، وذلك لأن وجوده ليس بشيء مادي حتى يحلل في معمل العلم ، بل وجوده يشعر به كل قلب ذكى سليم ؛ ولكن ليس كل قلب بسليم وذكى ، ولذلك نحتاج إلى معرفة صفاته التى تدل على وجوده وعظمته ، وهذا الموقف هو الذى تختلف فيه الأديان ، فالمذاهب التى تعتقد بعبدة آلهة ما هى إلا رجع بالعقلية إلى عصر البداوة التى كان المتوحش يعبد فيها كل شيء مخيف أو مفيد ، وعلى أنه علة لجميع الكائنات ، وقد يعترض علينا معترض أن عالم الكيمياء والطبيعة والرياضة أيضاً لا يعتقد بالعلة الأولى ، مع أن عقلية ليست فى حالة البداوة ، والواقع أن العالم يفرض عليه أن يفسر أجزاء ارتباط العلة بالمعلول ، ولا يتعب نفسه بتفسير تلك العلة التى دعت إلى ترتيب ذلك الارتباط ، وهو حينما اجتهد فى ذلك لم يجد له مفرعاً إلا أن اخترع مذهباً فلسفياً يستر عجزه عن نفسه المعرورة بقوة العقل ، ولهذا كانت الفلاسفة أثر حائنين ، حالة اليأس أو حالة الترف العقلى .

وأما المذاهب التي تعتقد بوحداية الله ، ولكن تختلف في صفاته فمعظمها اليهودية والنصرانية والإسلام . وقد بينا في فصل تصور الإله أن اليهود كانوا يصفون الله بجميع صفات الإنسان ، حتى وصفوه بوصف التناسل الإنساني ، وكان إلههم محصوراً في بني إسرائيل ، فأصبح الملك المتعصب الذي يحمى ويدافع عن شعبه ظلم الشعب المصري ، ثم صارت الشمس من شركائه ، وكذلك كانت حالة المسيحية التي نتجت من عقيدة عودة المسيح ، بل زادت المسيحية في الوثنية عبادة الإنسان ؛ وكل هذا يخالف تصور الإله في الإسلام الذي يحمد الله رب العالمين في صلاته كل يوم خمس مرات على الأقل ، وهو وصف لا نجده عند اليهود والنصارى ، فكيف يكون مستعاراً منهما ! ومن هذا يظهر أن عقيدة التوحيد ليست ميراثاً عن اليهود والنصارى ، وإنما جاء محمد (صلم) بوحداية لم تكن من قبله في عصره .

هذه الرسالة نتيجة دراسة سنتين ، ولكن اتساع الموضوع كان يقتضى منى دراسة سنين عدة ؛ فالحمد لله الذي أعاننى على إتمامه في مدة قليلة ، وما كان ذلك في استطاعتى لو لم يكن لى العون من مساعدة أساتذتى الأجلاء مثل الدكتور طه بك حسين ، والأستاذ أحمد أمين الذى كان يرشدنى دائماً إلى المصادر القيمة ، ولم تكن استفادتى قليلة من الأساتذة : الدكتور منصور فهمى عميد كلية الآداب السابق ، والأستاذ عبد الحميد العبادى ، والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور شخت ، والدكتور جفرى أستاذ اللغة العربية بالجامعة الأمريكية فى القاهرة ؛ ويرجع فضل هذا الجهد كله إلى حكومة حيدر آباد التى بعثتني إلى الجامعة المصرية ؛ وإلى هؤلاء الأساتذة الذين كانوا يشجعوننى على تحصيل الأدب فضلاً منهم وكرماً .

فأقدم عظيم امتنانى إلى حكومة حيدر آباد وإلى أساتذتى الأجلاء لما لقيته من رقيق الحنان وعظيم العطف مما كان له أجل الآثار الحميدة فى هذه النتيجة التى وصلت إليها ، وإنها لجهد أرجو أن يكون مبروراً مشكوراً ، والسلام .

الباب الاول

منهج البحث

الفصل الأول

مصادر الأساطير

الميثولوجي (علم الأساطير) علم من العلوم الحديثة ، لم يكن معروفاً عند العلماء القدماء كما نعرفه الآن ونبخته ؛ ودراسة الأساطير حتى عند الأوروبيين الذين يعنون بها عناية تامة لم تصبح دراسة علمية إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، فكيف — والحال هذه — نتوقع من علماء العرب في القرون الوسطى أن يدرسوها درساً علمياً ، وأن يبحثوها بحثاً فلسفياً . والمصادر التي تتعلق بالتاريخ الجاهلي وبآثار الجاهلية وصلت إلينا من الرواة والعلماء الذين كانوا ينقدون الروايات في ضوء العقيدة الإسلامية ، أو كانوا يفضلون الآراء اليهودية أو المسيحية على غيرها على الأقل ، فكل ما نقلوه عن العصور الخالية إنما نقلوه متأثرين بالعقيدة الدينية ؛ ومن سوء حظنا أن كثيراً من هذه المصادر أيضاً قد سطت عليها عوادي الأيام ، لذلك يضطرننا البحث أن نتساءل ما هو السبيل إلى استجماع أسطورة عربية ؟ وإذا وصلنا إلى الغاية التي نرومها ، فهل يمكننا أن نستنتج منها نظاماً ميثولوجياً علمياً خاصاً بالأساطير العربية ؟ وإذا كان متعذراً على العلماء القدماء أن يستكشفوا نظاماً لآلهة العرب ، وأن يعرفوا صفة الأصنام ونطاق أعمالها في دائرتها

المخصوصة ، وأن يضر الأوثان في محل مناسب وفق اعتقادهم فيها ، فكيف السبيل إلى أن يستنبط الباحث الحديث من أساطيرهم ما كان متعذراً عليهم أنفسهم ؟ ومع هذه الصعاب فسنحاول ذلك جهدنا ، وههنا نبين المنهج الذي نختاره في بحثنا هذا ، مستعينين بالله ، سائلين التوفيق متوكلين عليه ، فهو نعم المولى ونعم الوكيل .

منهجنا أن نبحث المسائل التي ذكرناها آنفاً من وجهتين : الوجهة الأولى هي مقارنة الأخبار التي دونت في كتب الأدب والتاريخ أو نقشت على الأحجار بعضها ببعض ، ولولا أن كل ما نعرفه تاريخياً أو دينياً عن شبه جزيرة العرب قبل الإسلام إنما هو أخبار ضئيلة ومبعثرة ، وصل إلينا بعضها بواسطة النقوش وبعضها على السنة الرواة الذين كانوا يروون أيام الجاهلية وقصصها قبيل الإسلام ، لاستطعنا أن ندون منها تاريخ بلاد العرب منذ ألف سنة قبل المسيح وما قبلها ؛ والمصر الذي نحن بصدده يراد به أزمان ما قبل ظهور الإسلام ؛ ولكن إذا رجعنا إلى تاريخ الأدب العربي (من غير نظر إلى الأمم السامية الأخرى) في ذلك العصر ، نجد أن جماعة الكتاب تناولوا عصرًا ضيقاً كله فيما بين سنتي ٥٠٠ و ٦٢٢^(١) من الميلاد ، أي نحو مائة سنة قبل ظهور الإسلام ، أعني به فتح مكة ، وهذا يخالف الواقع ، لأن هناك فرقاً كبيراً بين ما قبل الإسلام عامة ، وبين العصر الأدبي الذي حدده الكتاب على وجه خاص ، لذا يجب أن نبدأ بتفسير معنى الجاهلية الذي نمنيه .

اختلف العلماء في تحديد معنى الجاهلية ، وذهب المفسرون إلى أن المراد من الجاهلية في قوله تعالى : « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » أن الجاهلية كانت فيما بين نوح وإدريس^(٢) ، وقيل كانت للمرأة فيها

(١) Literary history of Arabs, by Nicholson B. XXII

(٢) تاريخ الطبري ج ١ ص ٨٢ .

تلبس البرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين ، وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى
 بلنها ؛ وروى عن الحكم بن عيينة^(١) أن الجاهلية كانت بين آدم ونوح ، وهي
 ثمانمائة سنة^(٢) ؛ وقال الكلبي^(٣) : إنما يراد بها عصر ما بين نوح وإبراهيم ،
 وقبل إنها عبارة عن أيام الفترة ما بين موسى وعيسى عليهما السلام ، وما بين
 عيسى ومحمد^(٤) (صلم) ؛ وروى^(٥) عن ابن خالويه أن هذا اللفظ أطلق في الإسلام
 على الزمن الذي كان قبل البعثة ؛ ويرى الأوسى في بلوغ الأرب أنها الزمان
 الذي كثرفيه الجهال . فهذه الأقوال كلها تدل على أنها تطلق على زمن الكفر
 مطلقاً كما قال أصحاب محمد (صلم) : كل من عمل سوء فهو جاهل ، ويؤيده قول
 النبي (صلم) لأبي ذر : « إنك امرؤ فيك جاهلية » ، وهذا يؤيد قول المستشرق
 جولنزيهر^(٦) (Goldziher) الذي أثبت أخيراً أن الجهل ضد الحلم لا ضد
 العلم ، فالشعراء الجاهليون كانوا يريدون بالجهل التوحش لا عدم المعرفة ، وكذلك
 المسلمون إذا ذكروا الجاهلية أرادوا بها العادات الوثنية . فليس من المستطاع أن
 نحدد الجاهلية كمصر معين من عصور التاريخ المعينة ، لأنها ليست زمناً متصلاً
 بفضه ببعض ، بل هي فترات متقطعة تقع حيناً بعد حين ، وكل فترة منها تكون
 طائفة وثنية لها شعائرها ولها خصائص عباداتها التي تعبر بها عن شعور الأمة
 حسب دواعي البيئة ؛ لكن البحث في مثل هذه الدواعي يحتاج إلى مصادر
 يرجع إليها كما تقتضى طبيعة البحث ، والآثار الباقية عن القرون الخالية — لا في

(١) مكنا في الأصل .

(٢) بلوغ الأرب جزء ١ ص ١٧ .

(٣) بلوغ الأرب ص ١٧ .

(٤) بلوغ الأرب ج ١ ص ١٨ .

(٥) بلوغ الأرب ص ١٥ .

(٦) Literary history of Arabs by Nicholson P. 30.

أساطير العرب فقط بل في أساطير الساميين بأجمعها — قليلة جدا ؛ ولا تخفى خرافات أمة من الأمم إلا بعد أن تدون في أدبها وتاريخها ، وأدب الساميين الوثنيين ضئيل جدا ، وكل ما وصل إلينا عن خرافات العرب مع أساطير الساميين إنما هو أخبار متقطعة ومبعثرة ، مثل الأساطير البابلية التي اكتشفت في الألواح السبعة : Kings Seven Tablets of Creation وفي الأدب البابلي (Babylonion Literature) وفي الدين الفلسطيني في ضوء الأرجيولوجي (Religion of Ancient Palistine in the light of Archæology, by Cook.)

ونجد قليلا جدا في نقوش الساميين الشماليين : North semetic inscription فالأدب القديم للعرب الجاهليين الأولين قد ضاع لانعدام صناعة الكتابة عند العرب . أما الأدب الإلهادي (Heathenism) الذي يوجد في الجاهلية الثانية أو قبيل الإسلام ، والذي ذكره القرآن الكريم ونظمه الشعراء القدماء في قصائدهم ودونته الكتاب ، كالذي يوجد في سيرة ابن هشام وأخبار عبيد بن شربة والإكليل وحياة الحيوان للدميري ، وفي كتب المتأخرين مثل الأغاني ومروج الذهب للمسعودي ، والأزرقى والبلخي والقزويني والثعالبي والألوسي ونحو ذلك ، فقد ساعدنا على الوصول إلى معرفة عقلية الجاهلية إلى حد بعيد ولعلم اتقاني اللغة الألمانية استعملت جميع المصادر العربية التي استعملها وهوسن (Welhausen) في كتابه (Rest der Arabicshen Heiduntum) وعرفنا آراءه من مقالة (تولدكه) حول العرب القدماء في دائرة المعارف (الأخلاق والأديان) . ويجدر بي أن أقول إنني أشك في أن كثيراً من هذه العادات التي ذكرها المؤرخون هي عاداتهم الأصلية ، لأنني أرى أن حكاية عاداتهم لم تتغير على أيدي الرواة فقط بل ولم تبق على بداوتها الطبيعية لتأثرها بالمدينة التي كانت تجاورها ، ذلك إلى أن آراء الصابئة واليهود والنصارى أثرت في فكرة الجاهلية تأثيراً عظيماً ؛ فليس من

الإسراف إذاً أن تقول : إن العربي الجاهلي تحت ضغط الأديان المختلفة أخذ يفسر شعائره القديمة على منهج الصابئة واليهود والنصارى ، ولاتغالي أيضاً إذا قلنا إن كثيراً من هذه الأخبار وصلت إلينا وقد صبغت بصبغة يهودية أو نصرانية ، وقليل منها وصل إلينا على بداوته الأصلية ؛ بل كم من أخبار البداوة التي لم تتفق مع عقلية الكتاب غض الكتاب عنها طرفهم ، كالذي يقوله ياقوت : قلت وهذه الحكاية كما ترى خارقة للعادات بعيدة عن المهودات ، ولو لم أجدها في كتب العلماء لما ذكرتها ؛ وجميع أخبار الأمم القديمة مثلها والله أعلم^(١) .

أما المصادر الأخرى التي تتعلق بشبه جزيرة العرب فتتضمن في أقوال المؤرخين اليونانيين ، مثل استرابو وهيرودوت ، أو في نقوش سامية أو يونانية بينت أسماء بعض الأوثان ولكنها لم تدل دلالة ما على سبب عبادة هذا الصنم أو ذلك .

وقصارى القول إن خزائن الكتب القديمة قد ضاعت ، واقطع الرجاء لسوء الحظ من العثور على تلك الآثار النفيسة ، ودرست النقوش وامحى أثرها إلا نزريراً يسيراً تحت الأطلال . أما التاريخ المدون فما هو إلا جمر ضئيل بين الرماد ، ولو لم يُذكره الكتاب المسلمون الذين خدموا العلم جبا في كرامة الدين الإسلامي نجبا نوره . ومع هذه المصادر الضئيلة لا مناص عن تحديد الموضوع ، إلا أن موضوعاً غامضاً مثل هذا لا يسمح بالتحديد ، وذلك لأنه ليس لتطور التفكير حد ثابت ، ولا لمعنى الوطن حدود جغرافية . كما أن القومية العربية امتزجت بالقوميات التي جاورتها ، والامتزاج وتبادل الآراء يدعو إلى تطور التفكير وتكوين عقلية الأمة ، فمن الصعب إذاً أن نتوصل بصورة تاريخية إلى الأزمنة التي طرأت فيها عقائد الأديان على الفكرة البدوية في شبه جزيرة العرب كلها . ولهذا يجعل بنا أن نركز الموضوع حول البداوة في الحجاز ، ونجدد لكي نصل إلى معرفة تفكير العربي الجاهلي فيه ؛

(١) معجم البلدان المجلد الثاني ص ٢٠ .

حقاً إننا نخسر خسارة كبيرة بهذا النهج ونضطر إلى ترك كثير من أساطير كانت في شبه جزيرة العرب ، ولكن نستطيع أن نتناض عن هذه الخسارة بالاستمداد من الأساطير التي توجد في فلسطين وبابل واليمن ، وسوف يثبت لنا أن هذا الاستمداد مفيد لتكامل الحلقات المفقودة من سلسلة تفكير العربي الجاهلي . وكذلك يمكننا أن نستفيد مما قلناه للمستشرقون عن تراجم النقوش الحميرية والنبطية والسبئية ، ثم تقارنها بما دون في التوراة والقرآن والأدب الجاهلي الذي ذكرناه سابقاً . إلا أن الأدب الجاهلي كما قلنا قد دون في عصر متأخر من المصور الجاهلية ، فلذلك لم يُعتبر كثير منه مستنداً تاريخياً عند العلماء . وإذا أرى أن البحث في التفكير الجاهلي يجب أن يبنى أساسه لا على التاريخ بل على الأساطير التي نقلت من جيل إلى جيل فسنحاول أن نستنبطها على قدر الاستطاعة من مقارنة الروايات المختلفة بعضها ببعض ، ويكون الاستنباط مبنياً على تفضيل الشيء الذي يوافق عقلية الأمة العربية وسببها ، ناهجين منهج علماء الأساطير الذين يعتبرون عدة أطوار في تطور التفكير — فتكون المقارنة وحدها هي منهج بحثنا في استنباط الأساطير لأنها أحسن وسيلة لمعرفة المجهول من المعلوم . وأما تحديد مبدأ الفكرة البدوية الجاهلية فهو أصعب من تحديد عصر ظهور الأمة العربية في آسيا الغربية ، وهي صعوبة تاريخية لا تزال تتعب عقول المؤرخين والباحثين عن مدنية القدماء . فكل ما نقول في هذا الصدد قبل اكتشاف المؤرخين يُعدّ رمية من غير رام ؛ ولذلك لا أزعج أن كل ما أقول في الأسطورة العربية هو الحقيقة الوحيدة ، بل إنما أحاول أن أستنبط من آثارهم الباقية ماذا كانت العقلية العربية في حالة البداوة وكيف تطورت .

وأما الوجهة الثانية فهي أن نبعث تلك المسائل من ناحية عقلية الأمة العربية وخيالها في ضوء بيئتها الطبيعية والاجتماعية ، وذلك لأن البحث في أساطير الأولين

هو بحث في التفكير ومناهج النظر البشري ، فهو يرينا كيف شرع الإنسان الأول يفكر في نفسه ، وفي خالقه وفي الرابطة بينه وبين الوجودات ، معنوية كانت أو مادية . فمن الضروري للتحقيق في تاريخ التفكير العربي الجاهلي أن نطلع على غرائز الأمة العربية وعلى ميولها وتأثرها بالظروف والأحوال ، ولكن ماذا نريد بالتفكير الجاهلي ؟ يجب أن نعرف التفكير الجاهلي أو الأسطورة قبل أن نسير في تقدير الخيال العربي باعتبار قابليته لتوليد الأساطير . ونبدأ بأراء علماء الغرب الذين سبقوا الشرق في استنباط هذا العلم كما تقدموا في درس تطور الخيال من قصص خرافية إلى فلسفة علمية ، فضلا عن ذلك فإن الظروف الطبيعية التي جعلت الآريين ممتازين عن الساميين حملتهم على توليد أساطير وشر قصص بكثرة وافرة وبأنواع مختلفة ، حتى أصبح متعذراً على العلماء أن يحددوا معناها لكثرة تنوعها . وتحديد أى شيء من الأشياء ليس من اليسير ، بل إن تعريف الأساطير التي تشمل بعض مميزات مشتركة بين أمم مختلفة صعب كل الصعوبة ، نظراً لتقاليد وراثية نقلت إليهم من عصر يسمى في الاصطلاح الحديث ، عصر توليد الأساطير (Mythopoeic Age) — وهذا العصر يماثل العصر الحجري والحديدي في تمثيله طوراً من أطوار ارتقاء الفكرة الإنسانية ، أو قل إنه وظيفة من وظائف الذهن الإنساني لأن هناك أساطير صنعت واخترعت في عصر التاريخ أيضا .

وجملة القول أن العلماء ذهبوا في تعريف الأسطورة مذاهب شتى ، فمنهم من رأى في الأساطير حكايات القدماء في الدين مثل زينوفانيس (Xenophanes)^(١) ورأى سقراط أن صفات الآلهة يمكن اكتشافها من تحليل أسماء الأصنام . ومنهم من ذهب إلى استنباط فلسفة الأولين منها مثل تياجيس (Theagenes)^(٢) الذي سلك

P. 41. Introduction to Mythology, by Lewis Spence (١)

Intr. to Mythology. P. 41. (٢)

مسلك أصحاب التشبيه والمجاز ، فقال مثلاً : إن المقاتلة بين الآلهة ليست بمقاتلة حقيقية بل يعبر بها عن التنارع بين عناصر مختلفة مثل الهواء والماء ، والنار والتراب ، أو بين عواطف نفسانية مثل الحب والعداوة ، ومنهم من قال إن الأسطورة هي التاريخ في صورة متنكرة (Euhemerus) ^(١) ومن هذا يظهر أن كل واحد من العلماء اختار نوعاً من أنواع الأساطير ولم يضع تعريفاً جامعاً مانعاً للأساطير بأسرها .

وعندما أتى القرن الثامن عشر وبدأ نقد الأساطير بالمعنى الصحيح ونبغ فيمن نبغ من المفكرين ماكس ملر (Max Müller) ^(٢) وهيربرت سبنسر (Herbert Spincer) — الذي فسر الأساطير في ضوء علم الاجتماع — اهتم بالأساطير اهتماماً كبيراً ، وبذلا الجهود في تحديد معناها فقال ملر : إنها « مرض من أمراض اللغة » (Disease of language) ^(٣) فسلك مسلك عالم اللغات ، وجاء بعده سبنسر فما كانت الأسطورة في رأيه إدراكاً مبتدئاً بل إدراكاً خاطئاً ^(٤) (Erroneous set of interpretation) . ومن آراء هذين المفكرين نعلم أنهما جعلتا الأساطير مرآة لقراءة نفسية الذين ألفوا الأساطير ، فرأى ملر أن القدماء كانوا عاجزين عن الإعراب عن ضمائرهم بلسان مبين ، وأما سبنسر فإنه حسب الأولين قاصرين عن فهم معنى الموجودات حيث قال إنهم مخطئون في إدراكها ، وذهب كلاهما إلى تحليل نفسية الأولين كما قلنا آتفاً ، ولم يشرحا نفس الأسطورة شرحاً بليغاً . أما طريقة ملر التي بها يحل الأساطير بمقارنة اللغات فقد بان خطؤها في حل المسائل التي تتعلق بمبدأ الأساطير ، أو التي تتصل بشرح الطبيعة في أساطير الأولين ، أو التي تتعلق بتأويل عناصر علمية من قصص أمم همجية ، فلا ضرورة لنا إذاً في إطالة الكلام فيها ، أو في

Intr. to Mythology. P. 42. (١)

Intr, to Mythology. P. 47. (٢)

Max Müller " on the Science of thought " P. 7. (٣)

Principles of Sociology, By, Spenser p. 131. (٤)

قد تعريف سبنسر بأنه إدراك خاطئ ، إذ لا يسوقنا إلى الغاية التي نحن بصددها ،
ولأنه خاطئاً كان الإدراك أو مصيباً فهو إدراك قوم ذوى نفوس وشعور كغيرهم من
الأمم . ولا إخال هناك فكرة صائبة في عصر من العصور ، ذلك لأنه لو وصلنا إلى
الحقيقة التي نسي ونبذل الجهود لتحقيقها لما كان التنازع ولا التنافس الذي تقابله
كل آن . فلنأخذ دراسة الأسطورة لا باعتبار أنها إدراك خاطئ أو مصيب ، بل
باعتبار أنها طور من تاريخ أطوار فكرة الإنسان .

وهذه الفكرة التي نهتم بدراستها هي فكرة ذات نطاق واسع وتنوع في المعنى
يستحيل حصره في كلمة بسيطة ، ولذلك اختار علماء عصرنا هذا أغلبية العناصر
في الأساطير وسموها ونسبوها إلى العنصر الذي يغلب عليها ؛ فمنهم من رأى فيها
تغلب عنصر ديني فنسبها إلى الدين ، وجعلها قسماً مهماً في دراسة الأديان . ويرى
رابرتسن سمث (R. Smith) أن الأسطورة ليست جزءاً جوهرياً من دين قديم
لأنها ليست في شريعة الدين ولذلك كانت غير لازمة للمتعبدين^(١) .

Mythology was not essential part of ancient religion for it had
no sacred sanction and no binding force on the worshippers.

ويقول : إن الأسطورة تستنبط من العادات والشعائر لا بالعكس^(٢) .

“ The myth was derived from the ritual, and not The ritual
from the myth.”

وإن العادات والتقاليد مستقرة وثابتة والأسطورة متغيرة ومتحولة . فالأول
واجب ومستلزم ، والثاني يتوقف على تخير المتعبدين . وهو يقول في موقف آخر
إن الأسطورة تفسير أو تأويل لشعائر دينية ، وهي على العموم لا تؤلف إلا بعد
ما تزول أو تضع الفكرة البدائية التي دعت إلى اتخاذ تلك الشعائر أو التقاليد ،

Religion of Semitic By R. Smith P. 17. (١)

، ، ، ، P. 18. (٢)

فالأسطورة عادة لا تشرح كيف بدأت الشعائر والعادات بل إنها بنفسها تحتاج إلى تفسير، ولذلك تفسر بواسطة العادات التي تتعلق بها . ويقابل هذه الآراء رأى : « لويس اسبنس » الذي يرى في الأساطير عنصرا مهما لدين القدماء فيقول وهو ينتقد فكرة « سمث^(١) » إنه بلا ريب على حق فيما يقول من أن الأسطورة ليست بمنزلة العقيدة في الدين القديم ، وإنما حكايات السدنة والناس تتخذ شكل الروايات التي تدور حول الأصنام ، وبعد ما تعلق هذه الحكايات بالدين وبالروح الديني لا نعرف لأي سبب أنكر وجود روح الدين في الأساطير ، وقال سمث : « إن هذه الحكايات ما هي إلا تفسير لشعائر الدين وقواعد متعلقة بالعادات . وإذا سلمنا أن الأساطير تفسر أعمال أعظم الأصنام فقد تكون ذات أهمية كبيرة للأديان ، لأن القصص التي تتعلق بالدين هي الأصل ، ولأن أغلبية الناس يبنون آراءهم في الدين على القصة التي تفسر عقيدتهم فيها . ومجموعة الأساطير التي تدور حول الأوثان تمد على العموم تراث القبائل عند البرابرة ، وهي تحمل محل المصاحف المكتوبة ، وتوحى الغرائز الشرعية والقصصية . فهي تمثل على مسرح قدسي ، وينشدها التلاميذ للحصول على مرتبة قيسية . فالزعم أن الأسطورة لم تكن جزءاً جوهرياً في الدين القديم مبني على خطأ حدث من سوء فهم حكاية مكتوبة أو منقولة متعلقة بالأصنام ، ولذلك نرى أن « ليوس اسبنس » رأى الأسطورة من أهم عناصر الدين القديم ، وقال إن رابرتسن سمث يخطئ مرة أخرى عند ما يقول : « إن التقليد أسبق في الزمن من الأسطورة ، ونحن نشق كل الثقة عند ما نقول إن الأسطورة قد استخرجت من العادات والتقاليد لا العكس » — وهذا صحيح فإن الأسطورة قد تستنبط من العادات كي يفسر ويتأول بها التقليد ؛ لكن يجب ألا تنقل أن الأسطورة التي من هذا

(١) Introduction to Mythology P. 63.

الصفحة توجد متأخرة جداً ، فهي طبعاً تولد إذا ما ضاعت الأسطورة التي كانت السبب في تلك العادة أو التقليد . وأما من يقول إن الأسطورة ليست جزءاً جوهرياً من دين قديم ، فنجد لدينا رداً بسيطاً عليه ، وهو أن الاعتقاد لم يكن لازماً لأنه كان طبيعياً وسائداً على الأذهان جميعاً . وخلاصة القول أن رابرتسن سمث غلا حينما أنكر علاقة الدين بالأسطورة ، وأما ليوس اسبنس فلم يكن أقل من أخيه تسرعاً في رده عليه ، فقد دافع عن كون الأسطورة دينية كما هجم عليها « سمث » هجوماً شديداً ، واستدل كلاهما تحت تأثير شعور تسلط عليهما من قبل . أما سمث فقد وجد في لانج (Andrew Lang) و جيفنس (Jevons) مؤيدين كبيرين لفكرته . فقد قال لانج : إن التصور الديني ينبعث من ذهن الإنسان في حالة التفكير السريع الذي يطرأ على الإنسان ويحمله على عبادة كل شيء مخيف أو مفيد . لكن الفكرة الأسطورية تنشأ من حالة غير التي ذكرناها ، وبعبارة أخرى إنها تنبعث من حالة ذهنية يلعب فيها الوهم والوسواس بالنفوس .

أما الأسطورة كما أرى فإنها — مهما كانت الحالة الذهنية — عبارة عن تفسير علاقة الإنسان بالكائنات ، وهذا التفسير هو آراء الإنسان فيما يشاهد حوله في حالة البداوة ؛ فالأسطورة مصدر أفكار الأولين ، وملهمة الشعر والأدب عند الجاهليين . ونلخص القول فنقول إنها الدين والتاريخ والفلسفة جميعاً عند القدماء ، وهي ليست فكرة مبتدئة أو خاطئة ، بل إنها فكرة بدوية تاريخية صبغت بصبغة الإطناب والمغالاة لإظهار أهمية تلك الحادثة الحقيقية في جيل زال أثره من ذهن الناس ، والناس بالطبع يكبرون الشيء الصغير لإظهار عظمة الجيل السالف ، ولذلك نرى الناس يعظمون الأموات ، وكلما بعد عصر الأموات من الأحياء كبرت عظمتهم وبلغوا درجة الآلهة . وكذلك عند ما وقف على أطلال الأكواخ القديمة تشعر كأنها كانت قصوراً ملكية ، وهكذا شأن الإنسان مع كل ما مضى .

أما الإنسان فهو بالطبع مجبول على أن يسأل ماذا ولماذا؟ والبدوى منطور على أن يقنع بأي جواب ممكن ، وذلك خير عنده من ألا يجد جواباً مطلقاً . فالأسطورة آراء البداوة التي تطرق ذهن الجاهلي وتخطر بباله وتختلج في قلبه لحل معتقداتها ، فهي قديمة العهد وبعيدة عن الوضوح ، ومحتوية على عناصر عدة ، إلى حد أنه من المستحيل أن نرى فيها سبباً لكل ناموس من نواميس الحياة الفكرية . لذلك نضطر أن نبحث وندرس تاريخ حياة الذهن الإنساني في تطوره بواسطة عناصر الأساطير التي تظهر لنا أنها غير معقولة ، مع أنها كانت معقولة ومسببة لدى مؤلفيها . وقصارى القول أن دراسة الأسطورة عندنا هي دراسة كل ما سطر عند الجاهليين تاريخاً كان أو ديناً ، لأنه لم يكن قد وجد في العصر الذي نسميه عصر توليد الأساطير ذلك التفريق الحديث . فالعلم كان محدوداً وممتزجاً بالدين ، ولم تكن المعلومات تتجاوز حدود دائرة الضروريات العقلية . ولكنه لا يبعد أن تكون الأسطورة ليست من الفولكلور (Folklore) ولا هي من القصص (Legends) . لأن الأسطورة هي صورة من صور الفكر البدائي حينما كانت مسطورة أو مطبوعة في ألواح الأذهان ، كما قيل في أسطورة إغريقية^(١) أن غيمز الساقى ابن طروس ملك طروادة ، كان بديع الجمال فخرج يوماً للقبص على جبل فنزل زوس (رب الأرباب) بهيئة نسر فاخطفه إلى السماء ، فأقام في أولمب واتخذ زوس ساقياً له ، ولهذا سمي الدلو . وكما قيل في أسطورة عربية « إنما كانت الغميصاء وسهيل مجتمعين ، ولذلك يقال للشعريين : « أختا سهيل فأنحدر سهيل فصار يمانيا ، وتبعته العبور فعبرت « الحجر » وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت^(٢) » وكذلك من أساطير العرب أن

(١) آلهة اليونان لمحمد حسين حمزة ومحاضرات الدكتور طه حسين بك .

(٢) بلوغ الأرباب ج ٢ ص ٢٣٩ — المطبعة الرحمانية سنة ١٩٢٤ .

الصيوق عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهرا وهي نجوم صغار نحو عشرين نجما فهو يتبعها أبدا خاطبا لها ولذلك سماها هذه النجوم القلاص^(١) . ومثل ذلك قصة الزهرة التي تبين أنها كانت امرأة حسناء فصعدت إلى السماء ومسخت كوكبا^(٢) — وقيل أيضاً إن الديك كان نديما للغراب ، وأنها شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا ، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب ورهن الديك فخان به فبقى محبوساً وفي هذا يقول أمية بن الصلت :

بأية قام ينطق كل شيء وخان أمانة الديك الغراب^(٣)

و « الفولكلور » يتكون من اعتقاد القدماء الذي لا يزال مستمرا إلى هذه الأيام مثل قصة حاتم في الجود والسخاء ، وقصة السمائل في الوفاء بالعهد . أما القصة (Legend) فهي على العموم الحكاية التي تتعلق بمكان واقعي أو بأشخاص حقيقيين نقلت بالتواتر من جيل إلى جيل ، مثل قصة سد مأرب ، أو قصة الزباء ، وقصة داحس والنبراء ، وقصة حرب البسوس ، فظهر من ذلك أن الأسطورة غير الفولكلور وغير القصة .

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) البدء والتاريخ لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي المجلد الثالث طبع باريس ص ١٤ .

(٣) الحيوان للجاحظ ص ١١٧ المجلد الثاني .

الفصل الثاني

قابلية العقلية العربية لتوليد الأساطير

وقد حان الوقت لنرى هل الأسطورة التي وضعنا معناها آفا توجد بمعناها السابق عند العرب الجاهليين أم لا ؟ وليس السؤال أمامنا هل الأسطورة من حيث هي طور من أطوار ارتقاء التفكير موجودة عند العرب أم لا ؟ أما الأسطورة كما عرفناها فإن وجودها ثابت عند جميع الأمم بلا استثناء وبغير شذوذ ، فلا غرو إذا قلنا إنها توجد عند العرب أيضا ، لكن محل البحث ليس وجود الأساطير عند العرب ، بل هو نظامها ، فهل كان لها نظام عند العرب كالأنظمة الموجودة عند أمم أخرى من حيث عملها في حياة البشر ؟ ولو كان كذلك فما كفيته ومقداره ؟ وقبل أن نشرع في بحث هذه المسألة بالذات يلزمنا أن نرجع إلى نقطة ذكرناها آفاً ، وهي دراسة الأمة العربية في ضوء بيئتها وعقائدها الوراثة ، وكل ما يحيط بها حتى نصل إلى معرفة نظم الأساطير عندها ، لأن معرفة العرب وقسيتها هي شواهد وأدلة داخلية للوصول إلى الغاية التي نحن بصددتها ؛ فالعرب كما قال أوليري تمتاز عن غيرها بمجالاتها الاقتصادية والاجتماعية أكثر مما تمتاز بمحدودها الجغرافية ، فإذا أردنا أن نقول شيئاً عن شبه الجزيرة وسكانها ، فينبغي أن تتبع العلماء الجغرافيين القدماء ، الذين يلحقون صحراء مصر الشرقية ، التي ما بين وادي النيل والقرات ، بشبه جزيرة العرب ، فقد قال « أوليري »^(١) ناقلاً عن بيون : إن حالة آسيا الغربية تدل على أن أهل الوبر كانوا بقايا من أسلاف الأولين ، وأنهم كانوا فئة من الشعب الذي عاق رقيهم المدني ، إذ كانت الشعوب الراقية في أودية

(١) Arabia before Mohamed, By O'leary.

النيل والفرات عشرة في طريق تقدم أهل البادية ، وبين هاتين المدينتين (مدينة النيل ومدينة الفرات) كانت الناحية الشرقية منعزلة فبقيت متأخرة في مراقي الحياة الاجتماعية ، ومن ثم ظلت بعيدة عن الاستفادة من الثقافة التي كانت سائدة في الشعوب المتحضرة في ذلك العصر ، فأنشأت فيها عزلتها هذه المميزات التي نسميها بالمميزات السامية . أما كلمة الجنس فيراد بها الطائفة الاجتماعية التي تمتاز بأنها لا تقبل التغير ولا تتأثر بعناصر أجنبية ؛ وذهب المؤرخون في أنساب العرب إلى أن العربي والفينيقي والأشوري والبابلي من أب واحد ، يؤيد ذلك التشابه في تركيب أجسادهم وعاداتهم ، ثم افترق العرب عن إخوانهم فاستدعى ذلك نشوء مميزات مخصوصة ، هذه المميزات هي التي سميت بالسامية ، وهي التي يسميها رابرتسن سمث الخصائص الجنسية (Ethnical characteristic) ، فإذا فرضنا أن العرب أعنى « السامية البادية » هم بقايا الشعوب السالفة المبعثرة والمحصورة ما بين المدينتين البابلية والمصرية ، وإذا سلمنا أن كلتا الثقافتين ترجع إلى مصدر منسوب إلى ما قبل التاريخ ، فينبغي أن نقرض أن الشقاق بينهما وبين أم أخرى قد وقع في عصر لا نعرف زمانه في تاريخ الإنسان . فالعرب تختلف عن جاورها في بيئتها الاجتماعية والاقتصادية ، وتشبه من حولها من الساميين في عاداتهم الوراثية وعقائدهم الدينية ، وذلك لأن النسل يحتفظ بترائه القديم مهما اختلف في البيئة كما قال رابرتسن سمث : « وإنما الأمم التي تشعبت من أصل واحد قد تشترك في اتخاذ العقائد والشعائر الوراثية ، دينية كانت أو غير دينية ؛ والدليل على أن العبرانيين ومن جاورهم قد اشتركوا في شعائر دينية يشبه الدليل المستمد من مصادر أخرى ، ويفيد أن أمة إسرائيلية كانت قريبة المأخذ من أمة وثنية في سوريا وشبه جزيرة العرب . وعند ما نطالع تاريخ فكرة دينية أو تعاليدها عند العبرانيين سوف نجد لها تراثاً مشتركاً بين أم متقاربة ، ولا نحسبها إراثاً مخصوصاً

لبنى إسرائيل^(١) ، فيثبت من هذا أن عرب البادية هما اختلفوا في البيئة عن الحضرة فلم قابلية وصلحية للتأثر بمن جاورهم من الأمم السامية في العقائد ، والواقع أن أهل الوبر تأثروا بأهل الشمال أكثر مما تأثروا بأهل الجنوب الذين كانوا متصلين بالحبشة ، وسنيناها في باب « آلهة العرب » إن شاء الله . صحيح أن وحدة الجنس (Unity of type or homogeneity) بين العرب ومن حولهم ليست وحدة تامة ، ولذلك لا يصح أن نأخذ موضوع الدرس شخصا من قبائل عرب البادية ونطبقه على البابليين ، لأن بيئة العرب تختلف عن بيئة البابليين . ولهذا طبيعة الوثنية العربية تقتضى أن تنقسم إلى الوثنية المحلية التي نشأت في تلك البيئة البادية ، والوثنية الخارجية السامية التي أثرت في السامية البادية ، وذلك لأننا مع الاختلاف الأساسي في الوثنية العربية ، نجد عند العرب والبابليين آراء متقاربة وأفكاراً متشابهة وتقاليد متحدة ؛ وعلى سبيل التمثيل نأخذ عقيدة الخلق والبعث وقصة الطوفان ، فنجدها عند البابليين كما نجدها عند العرب ، مع اختلاف بسيط ، وسوف نرى تأثير أفكار الأمم المجاورة ، والبابلية على الخصوص ، في مكة والحجاز نفسها ، فأكثر هذه الأساطير نجده سائداً في بادية العرب نفسها ، وهذا يدل على أن الأفكار والعقائد البابلية كانت سائدة حتى عند أهل البادية . وإذا قيل من أين أخذوا هذه الأفكار ، وقد كانت العرب في جاهليتها أمة منعزلة عن العالم لا تتصل بغيرها أى اتصال ، ولا تتصل بمن حولها في مادة ، ولا تقتبس منهم أدباً ولا تهذيباً ، قلت قد ردّ قبلي أستاذي الجليل أحمد أمين فقال : « الحق أن هذه الفكرة خاطئة ، وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم مادياً وأدبياً ، وإن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم

المتحضرة لذلك العهد نظرا لموقعها الجغرافي وحالتها الاجتماعية^(١) ، وهذا يهدينا إلى أن تقول بأن العرب كانت متحدة في مبادئ العقائد من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانوا يختلفون عن جاورهم من الأمم في الحالة الاجتماعية والاقتصادية . وهذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف البيئة في المدنية والبداءة .

أما البيئة الطبيعية في الحجاز ونجد فهي عبارة عن بادية ورمل لا نهاية لها وعن صحراء وعماء لا نبات فيها . فالأشجار فيها نادرة ، والآبار والعيون فيها قليلة وساكن مثل هذه البادية مضطر إلى أن يلجأ إلى مغارات في جبال سوداء ليحتمي بها من حرارة الشمس ، ويشد رحله بالليل تحت السماء الزرقاء وراء هداية النجوم للبحث عن بقاع خصبة ومراع خضراء .

وأما المدن فما هي إلا أنزل له عارضى ، وتنصب القبائل الخيام التي تشبه مغاور الجبال في أودية خصبة حسب فصول السنة ، فيرحل بعد اختتام الفصل إلى واد آخر . فالبيئة التي لا تسمح الظروف فيها بالزراعة والصناعة تجعل الإنسان يعتمد ويتكل على هبات القدرة في اكتساب المعيشة ، فهو يتربص المطر ويتربص أواصر القضاء والقدر ، وهذا التوكل على القدر عند العرب يتسع إلى حد أنه يبدأ يستقسم بالأزلام في الأمور جميعاً ، أما الاجتهاد المستمر في اكتساب المعيشة فإنها تجعل الإنسان لا يترك الأمور إلى القدر ، فهو لا يذهب إلى التفكير فيما بعد الطبيعة ، بل يستفيد من كل شيء سهل الحصول لديه ، والعربي لا يميل إلى أمور معقدة ، بل يطلب ذهنه صفاء ووضوحاً مثل صفاء الرمال الواسعة الممتدة ، لا حائل بينه وبين ما بعد مجال النظر . وهكذا شأن العربي الذي يحب الفكرة البسيطة ، والكلام الصريح والبيان الواضح ؛ لكن الاستفادة من أشياء بسيطة تحتاج إلى دقة النظر وشدة النشاط ، وهذه الميزة تحمل الإنسان

(١) فجر الإسلام ص ١٣ الجزء الأول (الطبعة الثانية) .

على أن يتسقى في رؤية كل شيء بسيطاً كان أو معقداً ، فهو ينظر إلى كل ما يشاهد بنظرة دقيقة ، وهذه الدقة في الرؤية تزيد قوة بصره ، كما تزيد في قوة الذاكرة ، وسوف نرى أن العربي في الواقع يمتاز بميزات خاصة له في القوة الباصرة والقوة الذاكرة ، وأجل مظهر من مظاهر البيئة الطبيعية في تسمية العربي حبه لوصف المراثيات وصفاً دقيقاً ، هذا واضطرابه في قضاء الحاجات الضرورية وهي عزيزة المثال في بادية العرب يجعله مادياً محضاً ، ولذلك نرى أن شرايز العربي تميل إلى المادة أكثر من ميلها إلى المعاني والروح فهو يمتاز عن الآريين في قوة المشاهدة ، وناهيك بقصة نزار التي تكاد تكون تراث العربي وعلامة الأمة العربية ، وهي أنه « لما حضرت نزارا الوفاة أوصى بنيه وهم أربعة : إياد ، ربيعة ، أنمار ، مضر ، وقال لهم اذهبوا إلى القلمس بن عمرو أسقف نجران فهو حكيم العرب وقاضيم ، فلما مات نزار بن معد ساروا إليه ^(١) » فمروا على أثر رجل فقال إياد : هذا أثر رجل أعور ، وقال مضر : بل أبت ، وقال ربيعة : بل أزور ، وقال أنمار : بل شرود ، فلقمهم صاحب البير فقال : هل حسستم من بعيري حسا ؟ فقال له إياد : هل هو أعور ؟ قال نعم ، وقال له مضر : هل هو أبت ؟ قال نعم ، وقال له ربيعة : هل هو أزور ؟ قال نعم ، قال له أنمار : هل هو شرود ؟ قال نعم ، ثم قال لهم فأن البير ؟ قالوا ما رأينا لك بيراً ، فتعلق بهم ؛ ثم أتوا أسقف نجران وهو متعلق بهم ، فقال : أيها الحكماء إن بعيري قد ضل ، وهؤلاء عرضوا على صفتهم وأبوا أن يدفعوه إلى ، فقال لهم أسقف نجران : ادفعوا إلى الرجل بعيره إذ أحطتم به علما ، قالوا له : مررنا على أثر بئر فرفنا صفتة بالأثر ، قال لهم : كيف وصفتهم ؟ قال له إياد : مررت بأثر بئر أعور ، وقال له مضر : مررت بأثر رجل أبت ، وقال له ربيعة : مررت بأثر رجل أزور ، وقال له أنمار : مررت بأثر رجل

(١) كتاب التيجان في ملوك حير من ٢١٤ و ٢١٥ .

شروود : وقال لإياد : ما دليلك أنه أعور ؟ قال رأيت يركب أثر عينه الصحيحة وعليها رعيه . قال لمضر : وما دليلك أنه أبتى ؟ قال : رأيت بعره يقع مجتماً ، ولو كان له ذنب لفرق به ووقع منتشراً . وقال لربيعة : من أين علمت أنه أزور ؟ قال رأيت أثر خنفي يديه يركب بعضهما بعضاً ، وربما خالف بينهما ، فعلمت أنه أزور . ثم قال لأنمار : من أين علمت أنه شروود ؟ قال : رأيت أثره ربما زاغ عن طريقه ، فعلمت أنه يروغ عن طريقه ، يعترض له فيروغ ، لو كان غير شروود لأصبناه ثابتاً في مكانه .

وهذه الملكة في دقة الرؤية استمرت وتركزت في شكل يشبه العلم مثل العرافة والقيافة ، ولكن لا يظن ظان أن العرافة علاقة بالكهانة ، لأن الكهانة والرهبانية عند الصابئة واليهود غير العرافة عند العرب ، وهي تختلف عن الكهانة والرهبانية اختلافاً أساسياً ، وذلك لأن العرافة طور من تطور أوهام العرب ، بدأت من الطيرة والتعاؤل والتشاؤم الذي كان سائداً عند العرب ، فلا تقال إذا قلنا إنها كانت جزءاً جوهرياً لحياتهم اليومية ، حتى لنرى العربي إذا أراد السفر يتفأل من السأمح والبارح ، وقد حكى أن الإسكندر تملك بعض البلاد فدخل هيكلاً فوجد فيه امرأة تنسج ثوبا فقالت : أيها الملك أعطيت ملكاً ذا طول وعرض ، ثم دخل عليها والى بلدها ، فقالت له إن الإسكندر سيعزلك ، فغضب فقالت لا تغضب ، إن النفوس تعلم أموراً بعلامات ، وإن الإسكندر لما دخل كنت أدير طول الثوب وعرضه ، وأنت لما دخلت فرغت منه وأردت قطعه ^(١) ، فارتقت العرافة من مبادئ الأوهام واتصلت بدقة الرؤية التي هي العطرة الثانية عند العرب ، واتخذت شكل قيافة الأثر وقيافة البشر ، واشتهرت في هذه القيافة عدة قبائل ، إلى حد أنه كان في

(١) مدينة العرب لمحمد رشدي ص ١٩ مطبعة السعادة سنة ١٩١٩ م .

استطاعة الرجل منها أن يقول إن الرجل والمرأة التي مرت بهذا الطريق من قبيلة كذا وكذا ويرى أثرها على الأرض ويقول إنها متزوجة أو غير متزوجة وإنها بكر أو ثيب ، وهكذا تطورت العرافة فاتصلت بالأصنام ، وأخذ العربي يستقسم بالأزلام ، وأصبح الكهان من الأطباء كما قال عمرو :

قلت لعراف اليمامة داوئي فإنك إن داويتني لطيب^(١)

واختصار القول أنها تختلف عن الكهانة ، وذلك أن نظرية الكهانة والرهبانية نظرية روحانية خالصة ، ونظرية العرافة نظرية مادية محضة لأنها مبنية على الاستنباط من المحسوسات والعلامات ، وتزوع العربي بالطبع يميل إلى المادة والدمرية كما حكاه الله تعالى عن عقيدة الجاهليين : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . وما زالت هذه الفكرة تقطع مراحل التطور حتى ظهرت الأديان في جميع النواحي ، وكان نفوذها متراعى الأطراف ، فتلبد جو العربي الصافي ، وتغيرت البيئة الاجتماعية في شبه الجزيرة ، فظهرت الصابئة وانتشرت آراؤهم في عبادة الكواكب تقرباً إلى الله ، وانتشر اليهود والنصارى في نجران وحول المدينة ، وانتشرت الآراء المجوسية في وادي القرات ، فلم تسمح نظريات الأديان للفكرة العريية البدوية أن تتطور إلى طور فلسفي ، فاضطرت عقلية العربي أمام هذه النظريات القائمة ، أن تتخذ منهجاً تقليدياً بدل المنهج الذي كانت تسلكه من قبل ؛ وأكبر مظهر لهذا التحول هو أسلوب عيشة الجاهلي قبيل الإسلام ، فهو (كما قيل) مع كونه وثنياً كان يعيش عيشة دينية مثل اليهود والنصارى والصابئة ، فهو يحج ويعتمر بدل أن يقيم الأسواق القديمة مثل عكاظ وذى المجاز ، ويعتقد شبه عقائد اليهود ، ويعبد الأوثان كعبادة الصابئين للكواكب ، لكن غرائزه الطبيعية كانت تسوقه إلى دين الآباء

(١) الشعر والشعراء ص ٣٩٦ .

القدماء ، فكان يخضع لسلطان الطبيعة أكثر من خضوعه لدين اليهود والنصارى ، فهو يعبد الحجر والشجر ، ويتخذ إله الصابئة واليهود ، ويصفه بالصفات التي كان أسلافه الأولون يصفون الأوثان بها ، فهو يميل إلى نظريات الصابئة واليهود تارة ويستهزئ بها تارة أخرى ، لأنه دهري المزاج ، والدين عنده أساطير الأولين ، والبعث حديث خرافة ، والأنبياء عنده من المجانين .

كان لدعاية اليهود والنصارى يد فعالة في تحويل تقاليد البداوة إلى تقاليد دينية راقية ، وطبيعي في مثل هذه البيئة التي كانت سائدة في شبه الجزيرة قبل الإسلام أن تكون عقلية العربي في حالة من الاضطراب والفوضى ، ولكنه ليس من المستطاع أن نبحت عن عصر انتقال فكرة البداوة إلى الفكرة الدينية ، وذلك لبعده عن الانتقال عن عصر التاريخ .

في هذه البيئة نشأ العربي الجاهلي العصبي المزاج ، السريع الغضب ، الذي يحب الحرية والمساواة ، والذي يثور على كل سلطة ، ويهيج من كل شيء تافه ، يمتاز بذلاقة اللسان وحضور البديهة واتزان الطبع ، ويفضل الإيجاز على الإطناب ، فهو يضرب المثل في جوامع الكلم ، ويتصور الأشياء كما هي ، ولا يسمح لخياله أن يتجاوز حدود الحقائق فلا يلونها بألوان قصصية ، وإنما كما يقول أستاذي الجليل أحمد أمين : « يطوف حول الشيء فيقع منه على درر مختلفة الأنواع لا ينظمها عقد^(١) . ولهذا لا نجد عند العرب الشعر القصصي أو شعر الملاحم ، إلا أن هذا لا يمنع من وجود خيال رائع وتشبيهات بديعة عندهم ، وكذلك رد الأستاذ على الذين ينكرون هذا أيضاً مثل أوليري القائل بأن العربي ضعيف الخيال وجامد العواطف ، فقال : « أما ضعف الخيال فلعل منشأه أن الناظر في شعر العرب لا يرى فيه أثراً للشعر القصصي ولا التمثيلي ، ولا يرى الملاحم

(١) فجر الاسلام ص ٥٢ .

الطويلة التي تشيد بذكر مفاخر الأمة كإلياذة هوميروس وشاهنامة الفردوسي .
 ثم هم في عصورهم الحديثة ليس لهم خيال خصب في تأليف الروايات ونحو ذلك ،
 ونحن مع اعتقادنا قصور العرب في هذا النوع من القول نرى أن هذا الضرب
 أحد مظاهر الخيال ، لا مظهر الخيال كله . فالفخر والحماسة والوصف والتشبيه
 والمجاز ، كل هذا ونحوه من مظاهر الخيال ، والعرب قد أكثروا القول فيه كثرة
 استرعت الأنظار ، وإن كان الابتكار فيه قليلا ، كذلك ماملئ به الشعر العربي
 من الغزل وبكاء الأطلال والديار وذكرى الأيام والحوادث ، وما وصف به
 شعوره ووجدانه ، وصور به التياحه وهيامه لا يمكن أن يصدر عن عواطف
 جامدة^(١) . فقد علمنا أن العربي له خيال وعواطف لكن ما عرفنا بمقدار هذا
 الخيال وهل هو مثل خيال اليونان أو الهند ؟

يجب أن نعرف نوع الخيال عند العرب لنعلم أنه يستطيع أن يولد الأسطورة ،
 لأن الخيال مفتاح أبواب الخرافة ، وأساس توليد الأساطير . ولكن قبل هذا
 ما الخيال في حد ذاته ؟ قيل إن الخيال ملكة من ملكات العقل بها تمثل أشياء
 غائبة كأنها ماثلة حقا لشعورنا ومشاعرنا ، فقد تستطيع وأنت على مكتبك أن
 تتخيل مجلس أنس وطرب في ليلة من ليالي الصيف الصافية في ضوء القمر ، ثم
 يمكنك أن تصور من ذكرياتك ومشاهداتك السابقة صورة جديدة لا عهد لك
 بها من قبل ، فذلك ما يسميه الناس على جهة التعميم بالخيال . ولهذا القوة العقلية
 وظائف ثلاث : (١) تصور المستقبل . (٢) تفهم المجهول من المعلوم . (٣) الخروج
 من نطاق الحقيقة المألوفة واختراع ما هو أشبه بالحق وأقرب إلى الباطل .
 أما تصور المستقبل فبمساعدة الماضي تحت تأثير الرغبة والأمل . فتتخيل الشيء
 المرغوب فيه ونسلك في الحال سلوكك من أدركه فعلا ؛ فالفتاة الراغبة في الزواج

(١) فجر الاسلام ص ٤٣ .

يلعب في مخيلتها دور العروس في حالة الزفاف ، وعناصر هذا التصور مأخوذة بلاريب من الذاكرة ، ولكن الرغبة هي المحركة لها ، ثم نضطر إلى تصور للمستقبل تحت ضغط الرؤية والتبصر ، فننظر إلى ماضينا أولاً ثم إلى امتداده وهو المستقبل ، على أننا لا نستطيع أن نتصور المستقبل إلا بمعلومات وتجارب سابقة تبعثها الرغبة . وأما تصور ما رآه أو سمعه غيرنا ولم نره ولم نسمع به نحن ، فنستعين على تعرفه بالتخيل ، فالحاكي يستعين بذكريته على إعادة الماضي ، والسامع يستعين بمخيلته على تصور ما يلقى عليه ، فهو يحاول أن يرى بفكرته ما رآه الآخر رأى العين ، بأن يستعرض في ذهنه منظراً مماثلاً لذلك الذي يصفه محدثه بما يثيره في نفسه ما يسمعه ، وبما عنده من التجارب ، فإذا كان المنظر غريباً وجديداً على السامع تعذر عليه تصوره ؛ وعلى قوة هذا التصور ووضوحه في الذهن يتوقف الفهم والإدراك . وأما تصور الشيء الموهوم مما لا وجود له في الخارج أو تصور ما كان قريباً من الواقع كل القرب أو بعيداً عنه كل البعد ، أو تصور ما يشبه الحق كل الشبه وهو باطل فيتجلى ذلك في الأحلام ، فأننا كثيراً ما نرى في المنام أموراً باطلة يستحيل وقوعها ، فالحالم يخادع نفسه ويتوهم أنه يتمتع فعلاً بما يحلم به . ويخطئ بعض الناس في التعبير بكلمتي « التصور والتخيل » فيخلطون بينهما ، والحقيقة خلاف هذا ، إنما التصور كما أجمع على تعريفه علماء النفس ، هو استرجاع الصور السابقة التي أثرت في الحواس من دون أن يكون لها وجود في عالم الحس يمثل الحالة التي وجدت عليها من قبل ، وليس التصور بمقصود على المرئيات وإنما هناك أنواع كثيرة منه بحسب الحواس ، فهناك تصور بصرى وسمعى وشمى ولمسى وحركى فإذا استرجعت صورة صديق لك فهذا التصور بصرى ، وإن استرجعت صوت مطرب فهذا التصور سمعى . أما إذا استرجعت الصورة التي سبق أن أثرت في حواسك وأضفت إليها شيئاً من عندك ، أو استرجعت عدة صور كونت منها صورة

واحدة جديدة لم تؤثر في حواسك من قبل فهذا تخيل ، فاذا تخيلت صورة لها رأس إنسان وجسم حيوان أو بالعكس فهذا تخيل . ولا يفوتنا هنا أن تقول إن التصور أساس التخيل . وخلاصة هذا القول كما رأى وليم جيمس أن الخيال ينقسم إلى قسمين : « خيال تصوري (Reproductive Imagination) و خيال اختراعى أو إبداعى (Productive Imagination)^(١) .

فالأمة العربية في الجاهلية تمتاز بخيال تصوري ، فهي تتصور الأشياء وتسترجع التجارب ، وبعبارة أخرى إن العربي يأخذ شيئاً من المراثيات وشيئاً من المحسوسات ثم يركب منهما صورة ليست بجديدة ، بل كما يشاهدها كل ذى عينين في عالم المراثيات ، فيصفها في الحالة الذهنية المخصوصة لتلك الظروف ولا يضيف شيئاً من عنده ، وذلك لأن عقلية محدودة في استرجاع الصور السابقة ، وليس لديه تجارب التمدن والحضارة حتى يخلق منها شيئاً جديداً . ونكتفي هنا بإيراد بعض أمثلة التشبيهات من اللغات فقط لأن بحث التشبيهات العربية ومقارنتها بتشبيهات الأمم الأخرى موضوع مستقل في حد ذاته ، وليس لدينا فرصة وافية لبسط ذلك الموضوع المتسع في مقدمة وجيزة مثل هذه . وسنرى في تشبيهات أصحاب اللغات أنهم يشبهون الناقة والفرس مثلاً بحيوان مثلها قال امرؤ القيس :

له أبطالا ظبي وساقا نعامة وإرخاء مريحان وتقريب تنفل^(٢)

وقال طرفة بن العبد :

كأن حدوج المالكية غدوة خلایا سفین بالنواصف من دد

وشبها عنتره بالظلم :

فكأنما أقص الإكام عشية بقریب بین المنسمین مصم^(٣)

(١) Principles of Psychology By, william James P. 44

(٢) القصائد المشر لتبريزى ص ٤٣ للطبعة الثانية بمصر .

(٣) شرح القصائد المشر لتبريزى ص ١٨٤ .

وشبهها الحارث بن حلزة بالنعامة فقال :

بزفوف كأنها هقلة أم رثال دويّة سقاء

ويشبهها النابغة الذبياني بالثور الوحشي من أرض وجرة :

فمدّ عما ترى إذ لا ارتجاع له وانم القُتود على عيرانة أُجْدٍ^(١)

من وحش وجرة موشِي أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرَدِ

وقال عبيد بن الأبرص :

عيرانة مؤجد فقارها كأن حاركها كئيب^(٢)

كأنها من حمير عانات جَوْنٌ بصفحته ندوب

وهكذا شبهها لبيد بأتان يتبعها حمار ثم ببقرة مسبوعة ، وقال امرؤ القيس في تشبيه الفرس : « كجلمود صخر حطه السيل من عل » ومثل ذلك التشبيهات القديمة كتشبيههم الناقة في الضخامة بالقصر والقنطرة ، وفي الصلابة بالملاة والصخرة ، وفي السرعة بالجندة والأثنية ، وسرعة الفرس بنجاء الظبي ، والسيد بالقمر ، وهو فحل الإبل ، والوجه الحسن بالشمس والقمر ، وأهداج النساء بالسفن ، والنجوم بالمصاييح ، والنساء ببيض النعام ؛ وقد ذكر أن الأخطل دخل على عبد الملك بن مروان فقال يا أمير المؤمنين قد امتدحتك فقال إن كنت تشبني بالحية والأسد فلا حاجة لي بشرك^(٣) ؛ وهذه التشبيهات تختلف عن تشبيهات العجم الذين يشبهون حصاناً بالبرق ويسمونه : « برق زقتار » و « فلك سير » (الذي يمشى على السماء) وبالهباء ويسمونه صبارقتار (الذي يمشى كهبوب الرياح) والشاعر الهندي شبه مشية البقر بمشية الخمور بسكرة الشباب المغرور^(٤) ، وشبه ذهاب ابن أمه في

(١) شرح القصائد العشر ص ٢٩٢ .

(٢) شرح القصائد العشر ص ٣٠٨ .

(٣) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٠١ .

(٤) تاريخ أدب أردو .

قصيدة قصصية بمرور خيال وقال : « ذهب إلى أمه ساكتاً كديب الخيال »
 وقال شاعر من الهنود القدماء وهو يخاطب مركب النجم « تعال مع مركبك
 الذي هو أسرع من طروق الخيال » (Come Ye with that chariot swifter
 than Thought)^(١) ومثل ذلك شبه إقبال « سراج الليل » بالأشعة التي
 دبت فيها روح الحياة^(٢) . انظر إلى ابتكار تصور الشاعر الذي يرى حياة
 وروحا في أشعة الشمس وكذلك شبه « وردسورث » فيقويه « بالصوت المتجول » :
 (Wandering Voice)^(٣) ، وشبه شيلي (Shelly) قنبرة (Sky lark) بالفرح مجردا
 عن المادة^(٤) ، وشبه ابن المعتز الحصان فقال :

أسرع من ماء إلى تصويب ومن رجوع لحظة الريب^(٥)
 وقال فيه أيضا على بن الجهم :

لا تراه العميون إلا خيالا وهو مثل الخيال في الانطواء^(٦)

وهكذا نجد فرقا كبيرا بين تشبيهات القدماء والشعراء المتأخرين .

وهاك مثالا آخر ، يشبه امرؤ القيس بحر الآرام بحب القفل ، والشحم بهداب
 الدمقس المقتل ، ويصف جيد عنزة بأنه كجيد الريم ، وفرع شعرها كقنو النخلة
 المتشكل ، وكشعها كجديل منحصر ، وساقها « كأنبوب السقي المذال » وهكذا
 يشبه لبيد آثار الديار (الطلول) بالوشم ، ويشبه عنزة الرماح بأشطان البعير ؛ وكثير
 من شعراء الجاهلية يصفون صقل السيف بالماء كما قال عمرو بن كلثوم :

كأن متونهن متون غدر تصفقا الرياح إذا جرينا

(١) Vedic Hymns, by E. J. Thomas P. 31

(٢) بامك دار (جرس العاقلة) لإقبال .

(٣) Babylonian Literature " The second dream of early ride "

(٤) Golden treasury P. 242

(٥) ديوان ابن المعتز ص ٢٩ .

(٦) التشبيهات الشرقية ص ٢٤ مخطوطة .

وهكذا شأن الشعراء التقليديين للأدب الجاهلية ، بينما الشاعر الباطلي يصف تلاًو السيف في مبارزة ازدوبار بلهيب النار ولعان الشهب . فإذا أمعنا النظر في تلك التشبيهات قلنا إن هذه كلها ليست جديدة بأن تسمى بالتشبيهات لأنها مقارنة أعضاء الإنسان وأعماله بأعضاء الحيوان وأفعاله ، أو قل ما هي إلا موازنة شيء بشيء آخر ، وقس على ذلك التشبيهات التالية ، قال امرؤ القيس :

كأن ثبيرا في أفانين ودقه كبير أناس في بجاد مزمل
ثم هو يقارن البرق بتحريك اليدين فيقول :

أصاح ترى برقا أريك وميضه كلعج اليدين في حبي مكلل
وهكذا يقول أوس :

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه في عارض كضئ الصبح لمأح
دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنها بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء بمصباح

ونزيد على ذلك ما قال أستاذي الدكتور طه بك حسين في بيتين آخرين وهما تشبهان ماديان محسوسان بالبصر أيضاً^(١) وهذا يؤيد ما قلناه آنفاً .
انظر إلى الشاعر المتأخر يصف السماء :

كأن سماءنا والشهب فيها وأصغرها لأكبرها مزاحم
بساط زمرد نثرت عليه دنانير تخالطها درام

وقال أبو هلال العسكري في الشمس

والشمس واضحة الجبين كأنها وجه المليحة في الحمار الأزرق

هاك ابن طباطبا يقلد عقلية الجاهلية وبيئة البدو فيقول :

كأن سهيلا والنجوم أمامه يعارضها—راع أمام قطع^(٢)

(١) الأدب الجاهلي ص ٢٩١ .

(٢) نهاية الأرب لتوري .

وقال الشريف الرضى في الفرقدين :

كأنهما إلفان قال كلاهما لشخص أخيه : قل فإني سامع^(١)

وقال امرؤ القيس في طول الليل :

فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار القتل شدت بيدبل

كأن الثريا علت في مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

بينما قال بشار الأعجمي الأصل :

أضل النهار المستنير طريقه أم الدهر ليل كله ليس يبرح

وقال ابن الأحنف :

أيها الراقدون حولي أعينوا نى على الليل حسبة وأتجارا

حدثوني عن النهار حديثاً أو صفوه فقد نسيت النهاراً^(٢)

وكذلك يتجلى الخيال العربي حينما تقارن بين شاعرية أبي تمام العربي وشاعرية ابن الرومي كما وضحها الدكتور طه حسين بك في كتابه «من حديث الشعر والنثر» فالتشبيهات العربية الجاهلية مع كونها منظراً بديعاً وصوراً جميلة لا تدل على ابتكار في التخيل ، فأين هذه التشبيهات من تشبيهات المتحضرين ، نعم لا يليق بنا أن نتوقع ذلك من العربي الذي كانت عقليته محصورة بين مشاهدات ومحسوسات بسيطة في العصر الذي نحن بصدده ، إلا أنه لا يجب أن تؤمن بأنهم أرق الأمم السامية ، فهذا يهدينا إلى أن الفكرة العربية في ذلك الزمان لم تتجاوز المرثيات ، ولذلك فإن العربي البدوي لم يتصور المعاني في حالة تجردها عن علاقة مادية ، نعم لقد وصف عمرو بن كلثوم الحرب بالطاحون ، وشبهها زهير بن أبي سلمى بالناقة اللقاح فقال :

(١) نهاية الأرب للتوري .

(٢) أمال ج ١ ص ١٠٢ .

فتمركم عرك الرحي بثقالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتنتم
ولئن كان هذا يخالف ما قلنا آنفاً لأنه يدل على أنهم تصوروا المعاني المجردة
في صورة خيالية ، إلا أنه ليس كذلك في الحقيقة ، بل الأمر كما قال التبريزي
في شرح ذلك البيت ^(١) « إنما شبه الحرب بالناقة لأنه جعل ما يحلب منها من
الدماء بمنزلة ما يحلب من الناقة من اللبن ، وقيل شبه الحرب بالناقة إذا حملت ثم
أرضعت ثم قطمت » ، وفي هذا دليل على أنهم لم يجردوا الحرب في التصورات
المذكورة عن الحقائق التي تنتج منها في عالم المشاهدات ، خلاف ما نرى في
التصور الروماني والإغريقي ، فإنهم صوروا الحرب والشجاعة والحب والجمال
وأشبه ذلك في معان مجردة ، ومع أنهم نحتوها على صورة الإنسان ، غير أن هذه
الآلهة أصبحت المثل الأعلى ، إلى حد لا نجد نظيرها في العالم الخارجي .

أما العرب فقد وصفوا أعمال أصحاب المروءة والشجاعة والوفاء ، وضربوا
الأمثال فقالوا « أوفى من السمومل » ، وذموا البخل ومدحوا السخاء ، وأقاموا له
تمثالا حيا في حاتم الطائي من غير مغالاة خيالية ؛ نعم كانت العرب تغلو
في وصف الأبطال مثل وصفهم للمدائين (الشنفرى وسليك بن السلكة
وتأبط شرا) ، ووصفهم لزرقاء اليمامة التي كانت تنظر إلى مسيرة ثلاثة أيام ،
لكنهم لم يتجاوزوا بهم حدود البشرية ولم يرتقوا بهم إلى درجة الآلهة مثل
أبطال اليونان في « الإلياذة » وأبطال المعجم في « الشاهنامة » وأبطال الهند في
« مهابارت » ؛ فالعرب لم يخلقوا أشخاصا خرافية مثل قنطرة الجبال (جمع
قنطورس وهو مخلوق خرافي كان يأوى إلى أكم تساليا وأجها وزعموا أنه له شطر
إنسان قائما على شطر حصان) ^(٢) ، ولا مثل الإنسان الخرافي ذي الألف عين

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي ص ١١٣ .

(٢) الإلياذة تعريب سليمان البستاني ص ٢٢٥ .

الذي نراه في رجويدا (Rigveda) ، ولم يمثلوا خلة من الخلال الفاضلة مجردة عن جميع العلاقات المادية ، وشاعروهم كما رأينا فيما ذكرنا من التشبيهات لا يشبه ، بل يقارن المرثيات بالمرثيات ويلونها بعواطفه ووجدانه ، وينظمها في قلائد ألفاظ شعرية ، وخيالهم خلاف خيال الآريين الذين يفضلون الرمز والإيهام على الصراحة والوضوح ، وقد قيل إن كهان بريطانيا وإرلندا مثل آلهة الهنود القدماء يحبون غوامض الأمور وخفيها^(١) ، هذا ما يتعلق بالتصور البصرى عند العرب . أما التصور السمعى فهو لا يقل شأنًا عن التصور البصرى عندهم ، فقد حكى عن كعب الأحماس أن سليمان عليه السلام مر على بلبل فوق شجرة يحرك ذنبه ورأسه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا اللبل ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : يقول « أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء^(٢) » ، ومر بهدهد فأخبر أنه يقول : « إذا نزل القضاء عمى البصر » أو « من لا يرحم لا يرحم » ، وصاحت طيطوى عنده فأخبر أنها تقول : « كل حى ميت وكل جديد بال » والورشان يقول : « لدوا للموت وانموا للخراب » والطاووس يقول : « كما تدين تدان » ، وإذا صاحت العقاب تقول : « البعد عن الناس الراحة » ، والقطاة تقول : « من سكت سلم » ، والنسر يقول : « يا ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت » . وهذه الأقوال كلها كانت مضرب الأمثال عند العرب ، فتعلم العربى هذه التجارب والنظريات فى الحياة التى كانت مليئة بالفقر واليأس ، ولقد دعت حياته الاجتماعية أن يلجأ إلى حى أصحاب الشجاعة والكرم ، أو إلى حى الأصنام ، أو إلى حى المروءة والخلال الفاضلة التى كانت أساس نظم الحياة الاجتماعية فى شبه جزيرة العرب ، ولعل العربى أخذ هذه النظريات بمساعدة

The growth of Literature. by Chadwich. Vol. II . Early Indian (١)
Literature P. 589 .

(٢) حياة الحيوان ج ١ ص ٨١ .

تصوره السمعى الذى طبقه على تفريد الطيور حسب وزن الأصوات ، نظرا لصعودها ونزولها . أما الدليل الذى يؤيد القول بأن العرب كانت تأخذ الأقوال وتطبقها على أصوات الطيور ، فما قيل من أن العرب تصف الفاختة بالكذب لأن صوتها عندهم « هذا أوان الرطب » ، وتقول ذلك والنخل لم يطلع ولذلك يقال : « أكذب من فاختة^(١) » . وهذا النوع من الخيال يظهر جليا فى الأساطير العربية .

أما ما يتعلق بفكرة غير مادية مثل فكرة الجن ، فسوف نرى أن العربى لا يستطيع أن يتخيل صورة الجن كما يتخيلها اليونان والهند والفرس ، فصورة الجن عند غير العرب من الأمم رهيبة مخيفة ، ومبنية على مفالة بعيدة عن القياس ، وتركيب أجسادها على خلاف المهود ، وأعمالها خارقة للمعادن ، لكن العرب توهموا الجن دائما فى صورة الحيوان ، مثل الحية والنعام والقنفذ والأرنب وسنين هذا فى « باب المذهب الطومى » . وكذلك سنرى أن العقلية العربية القديمة تتصور الروح فى شكل الهامة ، والعر الطويل فى شكل النسر ، والشباعة فى صورة الأسد ، والأمانة فى شكل الكلب ، والصبر فى الحمار ، والمكر والدهاء فى الثعلب ونحو ذلك . ولذلك نرى أنه من الصعب على العقلية العربية أن تفهم العقائد التى تتعلق بما بعد الطبيعة ، لأنها لم تستعد بتجاربهما السابقة لإدراك العقائد التى تفسرها الأديان كما قال الشاعر :

حياة ثم موت ثم نشر حديث خرافة يا أم عمرو

وكذلك العربى لا يفكر من أين برز العالم وإلى أين يصير ؟ كما يسأل الأرى القديم مخاطباً هبوب الرياح « أين ولد الريح ومن أين يجيء ؟ » ، وكما يسأل الأرض والسماء أى منهما الأول وأى هو الآخر^(٢) . لأنه يعرف ويعتقد فى

(١) حياة الحيوان للدميرى ج ١ ص ١٥٨ .

(٢) Vedic Hymns P. 54 By. Thomas

بعض القوى الطبيعية منذ عهد قديم ، كما علمته طبيعة مناخ البلاد نفسها أن الأشياء تخرج من القوة إلى الفعل ، وأن العالم لم يزل ولا يزال ، ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله كما قال السجاح بن سباع الضبي الجاهلي :

لقد طوفت في الآفاق حتى بليت وقد أنى لى لو أريد^(١)
وأفنانى ولا يفنى نهار وليل كلما يمضى يعود
وشهر مستهل بعد شهر وحول بعده حول جديد
ومفقود عزيز فقد أتى منيته ومأمول وليد

هذه هي عقيدة المعطلين وأشهرهم قبيلة قريش ، وما كان من نفوذ قريش على القبائل الأخرى لا يحتاج لمزيد تعريف . فالزمان عند العرب شيء أزلى يدبر نظام العالم ويتوقف عليه يسر الإنسان وعسره ، وهو الذى يقدر أعمار الإنسان ، ويمنى له ما يتمنى ، وهو المحيى والمميت كما قالوا « ما هى إلهياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، فهو الذى يصيب الإنسان بالأمراض والنكبات والبؤس . فسعادة الإنسان وشقاوته تتوقفان على الدهر ؛ ولذلك ترى الشعراء الجاهليين مغرمين بالتغنى بأعمال الدهر وما يتعلق به فيصفونه بالرأى الذى لا يخطئ فى الرماية ، وبالساقى الذى يسقى الناس كأس المنية . قيل إن عمرو بن قبيصة أنشأ هذه الأبيات لما تقدمت به السن ، وهرمه الدهر :

رمتى بنات الدهر من حيث لأرى فما بال من يرى وليس برام^(٢)
فلو أن ما أرمى بنبل رميتها ولكنما أرمى بغير سهام
وأفنى زولا أفنى من الدهر ليلية وما يُفن ما أفنيت سلك نظامى
وكذلك قال شاعر آخر :

أسلموا للهنون عبد يغوث وبعض الكهول حولاً يراها

(١) ديوان الحماسة ج ١ ص ٤٢٤ — مطبعة محمد على بمصر .

(٢) الأدب الجاهلي ص ٢٢٥ .

بعد ألف سقوا المنية صرفا فأصابت في ذاك سعد منهاها

وهكذا كانوا يخلطون معنى الدهر بالقضاء والقدر .

لقد تطورت هذه العقيدة في الدهر والقدر والزمان إلى حد أن العربي خضع

لسلطان « مناة وعوض » الذي قيل إنه صنم في معنى الدهر وقال فيه الشاعر :

ولولا نبيل عوض في حظباى وأوصالى^(١)

لطاقنت صدور السخيل طعنا ليس بالآلى

وإذا صحت هذه الرواية فقد صار الدهر إلهاً من آلهة العرب ، وقد عبد

الهذليون عوضاً ، قال رشيد الغنوى :

حلفت بمأثرات حول عوضٍ وأنصاب تركز لدى السمير^(٢)

واتشرت عبادة مناة في أنحاء شبه الجزيرة ، وسوف نبينها في فصل « آلهة

العرب » إن شاء الله .

ولكن لا يظن ظان أن ألوهية الدهر هذه قد تجاوزت علاقاتها المادية فقد

قال داوسن : « عند ما ننظر إلى الأسماء الإلهية نرى أول ما عرف الساميون من

صفات الله هي قدرته ، ونراهم أبطالاً في معرفة الصفات الأخرى خاصة ثبوتها وعدم

تغيرها ، وبعبارة أخرى أبطالاً في فهم الإله كمثل أعلى لما فوق البشرية »^(٣) .

وخلاصة القول أنى أذهب إلى أن العربي قليل الابتكار ، وأن عقليته خالية

من الخيال الاختراعى ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يكون له مثل أعلى في العاديات

وفي تصور المحسوسات ؟ وقد كان للعرب نظرة خاصة في الحياة كما قال مجمع

ابن هلال الجاهلى :

(١) ديوان الحماسة ص ٢١٤ ج ١ .

(٢) لسان (مور) .

(٣) Davidson's, Theology of old Testament

وخيل كأسراب القطا قد وزعتها لها سبيل فيه المنية تلمع^(١)
 شهدت وغنم قد هويت ولنة أتيت وماذا العيش إلا التمتع
 وقال طرفة بن العبد :

ألا أيهذا اللأثمى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخدئ؟
 فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي^(٢)

فكان للعربي غاية من الحياة يسعى وراءها . وإذا لم يضع الكلمة التي تعبر
 عن المثل الأعلى ، فذلك لأنه لم يحتاج إلى ذلك . لأن غاية الحياة كانت واحدة
 مشتركة وسائدة في جميع أفراد الأمة بدون أن يشعر إلى أين يسعى — وكذلك
 الحال مع أكثر الناس في يومنا هذا — ولو لم تكن للحياة غاية عند العرب فماذا
 أراد امرؤ القيس إذ قال :

فلو أنما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلا من المال
 ولكنما أسعى لمجد مؤثّل وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي^(٣)
 فهذه الغاية أو المثل الأعلى كان عند العرب هو « الخلود » ، وقد كان
 في مبدأ الأمر خلوداً أو بقاء مادياً ، وأقوى شاهد على ذلك نجده في الأساطير
 العربية ، فقد قيل : كان الملك ذو القرنين يفكر ويحلم أنه يملك الأرض ومن
 عليها ، وقيل إنه كان يسخر الشمس والقمر حتى وصل مع الخضر إلى عين الحياة
 ليشرّب الماء الذي يعطيه حياة أبدية لكنه منع ذلك^(٤) . وكذلك قيل أن
 لقمان بن عاد اختار طول عمره فكان من دعائه حين سأل طول العمر :

(١) ديوان الحماسة ص ٣٠٣ ج ١ .

(٢) معلقة طرفة بن العبد .

(٣) عمدة الأديب للأستاذ سليم الجندى ص ٥٩ المجلد الأول في امرؤ القيس طبع دمشق

(٤) كتاب التيجان ص ٩١

اللهم يارب البحار الخضر والأرض ذات الثبت بعد القطر
أسألك عمراً فوق كل عمر

فنودى أن قد أعطيت ما سألت ، ولا سبيل إلى الخلود فاختر إن شئت
بقاء سبع بعرات من ظبيات عفر في جبل وعمر لا يمساها قطر ، وإن شئت بقاء
سبعة أنسر سحر ، كلما هلك نسر أعقب نسر ، فكان اختياره بقاء النسور^(١) ؛
فبينما لثمان يدور ذات يوم في جبل أبي قبيس بمكة سمع منابيا لا يرى شخصه
وهو يقول : « يا لثمان بن عاد المغرور ببقاء النسور ، اطلع رأس ثبير ليس يعدو قدرك
المقدور » ، فطلع رأس ثبير ، فاذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيها ،
فاختار لثمان أحد الفرخين ، ثم عقد في رجله سيرا ليعرفه ، وسماه المصون ، ثم قال
المصون الخالص المكنون^(٢) من بيت المصون ومحظور السنون وعبط العيون
والباقي بعد الحصون إلى آخر الدهر الخثون ؛ فكان لا يغفل عن إطعامه حتى
تم طائراً مسخراً له يدعو به باسمه للأكل فيجيبه ، حتى أدركه الكبر فضعف ،
فلم يطق أن يطير ، فبينما لثمان يطعمه لما قد بضعه له إذ غص بيضة منه فخرميتاً ،
فجزع لذلك جزعاً شديداً ، وقال هذا بلاء ، ووقعت الواقعة مثل ذلك مع كل
نسر مثله : عوض^(٣) ، وخلف^(٤) ، ومغيب^(٥) ، وميسرة^(٦) ، وأنسا^(٧) ؛ إلى
أن جاء دور السابع وهو لبد^(٨) .

(وفسير عبيد أن اللبد في لغة العرب معنى الدهر) ، فلما دنا أجل لثمان
وبلغ الميقات أقبل ذلك النسر « لبد » حتى وقع على شجرة الرطب فدعاه ليطعمه
من لحم قد بضعه ، فأراد « لبد » أن ينهض فلم يطق أن يطير ، فأقبل لثمان فرحاً

(١) التيجان أخبار عبيد بن شربة ص ٣٥٦ طبع حيدرآباد .

(٢) » » » » ص ٣٥٧ » » » »

(٣) ، (٤) ، (٥) ، (٦) ، (٧) ، (٨) أسماء النسور

حتى قام تحته وقال : انهض لبد أنت الأبد لا تقطع بي الأمد ، فلم يطق لبد أن ينهض وتفسخ ريشه ، فهال ذلك لقمان هولا عظيماً ، ووقع موته منه موقعاً جسيماً ، فأنشأ لقمان يبكي نفسه ، ثم سقط لبد ميتاً ، فجاء لقمان ينهض فاضطربت عروق ظهره وخر ميتاً .

هذه الأسطورة تمثل غاية الحياة عند العرب القدماء ، وهكذا كان الشعراء يتعظون بموت إخوانهم وينعون على الدهر خيائه ويكون على القدر المحتوم مهما طال العمر والبقاء ، وباب القبور في كتاب الإكليل^(١) ملآن بأساطير من هذا القبيل ، فيروى أنهم حضروا في الحيرة فوجدوا بيتاً ، فدخلوه فأصابوا فيه رجلاً على سرير من رخام عليه حلتان ، وإذا عند رأسه كتاب « أنا عبد المسيح بن بقبيله »

حلبت الدهر أشطره حياتي وثلت من المنى ببلغ المزيد
وكأفت الأمور وكأفتني فلم أخلع لميعتها برودى
وكدت أنال في الشرف الثريا ولكن لا سبيل إلى الخلود

وقد ألف أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني كتاباً مستقلاً في أخبار العمرين الذين عاشوا أو قيل إنهم عاشوا مائة وعشرين فما فوق .

هذا ما اتجه إليه المفكرون ، لكننا نجد شكلاً آخر من هذا الخلود في التقاليد العربية ، وأقوى برهان عليه أن الأمة العربية تهتم تمام الاهتمام بأن تجعل المروءة والثار والعصبية شعاراً قومياً احتفاظاً بتقاليدهم القديمة ، والذي أملى على العرب اتخاذ هذه الخلال هو شعور سام برغبتهم في إحياء الذكرى وبقاء تنظيم الحياة الاجتماعية ، فقصوا الأفاصيص حول الأشخاص البارزين في أوصاف المروءة مثل حاتم الطائي في الجود والكرم ، وعلقمة وتأبطشرا والشنفرى

(١) الإكليل ص ١٧٧ ، ١٧٨

في الشجاعة ، والسموأل في الأمانة والوفاء وغير ذلك ، ووضعوا أمثالا لموعظة الناس كما قيل « كان الرجل في الجاهلية إذا غدر وأختر الذمة جعل له تمثال من طين ونصب وقيل « الأإن فلاناً قد غدر » ، وقد قال الشاعر: « ولنجعلن لظالم تمثالا » .

أما شأن العربي في ربط العلة بالمعلول فإنه مهما كان ضعيف التعليل في ربط المادة بالروح والروحانية ، لم يكن ضعيفاً في الاستنتاج من المحسوسات . أما اعتقاده أن دم الرئيس يشفي السكب ، وأن سبب المرض روح شرير حل فيه ، فيداويه بما يطرد هذه الأرواح ، أو أنه إذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتعليق الأقدار وعظام الموتى ، إلى كثير من أمثال ذلك ، فهذا كله لا يدل على عدم القدرة على التعليل ، بل هو من أوهام الناس ، وأمثال هذه الأوهام نجدها في أم قوية التعليل كالليونان والرومان ، فالمرض الذي يسمونه عين الملك (Scrofula = King's eye) كان الفرنج يعالجونه بريق الملك . وكثير من الأمم في دور البداوة كانوا يحسبون أن سبب الجنون حلول روح شرير في جسد الإنسان ، وكانوا يداوونه بالضغط على صدر المجنون وعلى بطنه كي يخرج الروح الشرير من جسده ، وكمن الناس في يومنا هذا يتوهمون أنه إذا اختلجت عينه فسوف يحدث كذا وكذا . وقصارى القول أن العربي كما قلت آتقاً لا يفكر في أين ينتهى العالم ، بل إنه يرى العظماء الذين كانوا ذوى قوة وبأس وحكمة وفراسة لم تتركهم في قيد الحياة رماية الدهر والمنية ، ويرى أن كل شيء من عالم المرثيات يزول ويفنى . فقد لعبت طسم وجديس وعاد وثمود دورهم على مسرح الحياة وزالوا ، وتغلب عليهم الفناء ولحقوا بآبائهم الأوابين إلا الليل والنهار والشمس والقمر والدهر والفلك ، فكل أولئك على حالة واحدة غير متغيرة منذ الأزل ، ولا تزال مستمرة على ذلك إلى الآن ، فهو يفكر إذا ما فكر

في ما هو الموت ؟ وكيف نحترز من يديه الباطشتين ؟ ولأى سبب يبقى النهار والليل أبديين وليس لنا البقاء ؟ ثم هو يستنتج من الحوادث اليومية استنتاجاً استقرائياً ينتهي به إلى أن الموت يتوقف على القضاء والقدر ، وما الليل والنهار إلا الدهر كما قال الفطش الضبي :

أقول وقد فاضت بعيني عبرة أرى الدهر يبقى والأخلاء تذهب
أخلى لو غير الحمام أصابكم^(١) عتبت ولكن ما على الدهر معتب
فما هو السبيل إلى إرضاء هذا الدهر وتحصيل البقاء ؟ لهذا هو يختار شعاراً مخصوصاً لحياته البدوية في شكل اجتماعي .

تبين لنا أن العربي كان يخضع لسلطان المروءة أكثر من خضوعه لسلطان الدين والآلهة ، وكان يتنافس في الأخذ بالثأر ، وكان يستमित عصبية حبا للكرامة والحرية والمساواة والأخوة ؛ فلما تطور التفكير العربي البدوي ، وتأثر بمقائد الأديان المجاورة ، نبغ المفكرون وجعلوا ينتقدون أفكار البداوة ، وأخذوا يفسرون عبادة الأوثان حسب دواعي العصور ، فأصبح تصورهم أشبه بالتخيل . قلت سابقاً إن العربي قليل الابتكار ، ولم أقل إنه عار من الخيال دائماً ، إلا أن التصور أو الخيال التصوري هو الغالب والمسلط على حياته العقلية ؛ وهذا الخيال التصوري يولد الأسطورة التصورية ، كما يصنع الخيال الأساطير الاختراعية ؛ ولذلك نرى العربي يمثل نجوم السماء بما يشاهده في البیداء ، وينقل شكل حياته الاجتماعية البدوية على رقعة السماء ، غير أنه لا يخترع الأساطير مثل اليونان ؛ والعربي ليس بمقصود على هذا الحد من التصور ، بل نجده يربط الصور بعضها ببعض كربط حياته اليومية ، فهو يرى في السماء صورة الراعي وكلبه^(٢) ، ويتصور

(١) لسان (عتب)

(٢) الصور والكواكب مخطوط دار الكتب المصرية

على انقلك صورة الناقة والرجل الذي بيده غول^(١) وكلبه ؛ ذلك إلى أنه ينظم هذه الصور في قلادة واحدة ، كأنما يريد أن يؤلف من تلك الأجزاء المبعثرة قصة تمثل حياته البدوية ، فهو يتصور مع الراعى وكلبه قفزات الظباء ووثبة الأسد وحوض الماء (يشبه الشعراء المجرة بالنهر) ، فإذا وثب الأسد وقفزت الظباء لجأ الراعى مع غنمه وكلبه إلى الحوض . وكذلك يرى أن التوءم العواء كأنها خمسة أكلب تعوى خلف الأسد ؛ ثم هو يضع قصة تصويرية من نجوم الدبران والعيوق ، ومن سهيل والقيصاء ؛ كما أنه يذكر أسطورة عن الزهرة ، فهذه كلها صور رائعة ، وشبه خيال قصصى .

وإذا رجعنا إلى بعض أبيات وأساطير الأدب الجاهلي رأينا الضم ينفث يشترك في حروب العرب القبلية ، كما نرى العربي يستنثث ويستنصر « هبل » في غزوة أحد ؛ ثم هو يشخص الأشجار والأحجار ، ويبدل الإنسان في الحجر والشجر والنجوم ، ويرى الحياة في الشمس والقمر ، لكنه لم يلبس للماني جسماً ولم يجعل لها شخصاً كما بينا سابقاً . نعم لقد تصور العربي الجوع في صورة الحية ، لكن تصوره حية تولد وتنشأ في بطن الإنسان وسماه « صفرأ » فهو لم يتمثل الجوع في صورة الحية بل رأى الجوع نفسه هو ثعبان البطن .

وبعد : فقد رأينا جميع أشكال الأسطورة عند العرب فهل يستطيع أحد بلئذ أن يرتاب في قابلية العقلية العربية لتوليد الأساطير ؟

وخلاصة القول أن العربي محدود الخيال من ناحية التخيل الاختراعى ، وواسع الخيال من ناحية التخيل التصورى ، فهو ممتاز في التخيل التصورى ومجيد له ، والأسطورة تتولد من الخيال التصورى كما تتولد من التخيل الاختراعى ؛ وهو يتصور الأشياء ولا يخترع القصص حولها ، ويقم الأوثان في هيئة يرسمها ويلونها

(١) الصور والكواكب مخطوط دار الكتب المصرية

بالوان التصوير لا بألوان التخيل . فإذا أردنا أن نبحث أسطورة عربية فعلينا أن نراها في خيال تصوري أكثر مما نراها في خيال اختراعي . وإذا أردنا أن نبحث عن العربي الذي ينسج الأسطورة فيجب أن نرى ذلك العربي حين يلعب بالألقاظ ، وهكذا شأنه في يومنا هذا كما قال أستاذي الجليل الدكتور طه بك حسين : « فالبدوي الآن فصيح كالبدوي القديم حلو الحديث محب للسمر والقصص إذا اطمأن واستراح ، خطيب بليغ إذا كان بينه وبين غيره خصومة أو جدال^(١) » .

هذا وقد مرّ تفكير الأمة العربية بأطوار يسميها علماء الميثولوجيا بطور ما قبل المذهب الحيوي (Preanimism) ثم طور المذهب الحيوي (Animism) ثم طور المذهب الطوتمي (Totemism) ثم تعدد الآلهة (Polytheism) ويتبعه فكرة وحدة الإله (Monotheism) ولم تختَر هذه الأطوار لأنها أطوار مستقرة ولازمة لكل أمة ، بل اخترناها لأنها تمهد السبيل لتوزيع الأساطير المتنوعة في أبواب وفق نوعية الأسطورة ، ثم تسهل الطريق للوصول من المعلوم إلى المجهول . وسنبداً بالمذهب الحيوي لأننا بينا كثيراً من طور ما قبل المذهب الحيوي في تحليل عقلية العرب ونفسياتها .

(١) الحياة الأدبية في جزيرة العرب ص ٢٥ .

الباب الثاني

المذهب الحيوى

الفصل الأول

نظرية المذهب الحيوى

الضرورة أم الاختراع ، وما الضرورة إلا تجربة البشر في حياتهم المبتدئة ، ولقد سعى الإنسان القديم وراء قضاء تلك الضروريات سعياً كسعى الطفل في حداثة سنه حين يتمرن على المشى ، فكانت هذه الضروريات بسيطة ومحدودة في أول الأمر ، ثم استقرت وأخذت مكان العادات والتقاليد ، فالإنسان القديم قبيل انتقال الضروريات القديمة من حالة التجربة إلى حالة التقليد لم ينظر إليها بنظر فلسفى ، ولم يبالغ في تفسير تلك التجارب مثل مبالغتنا ، ذلك لأن المبالغة والتفلسف هي طريقتنا ، وليست طريقة الإنسان القديم ، فهو لا يعرف تأليف القضايا التي تتركب من الأسباب والعلل ، بل هو يدون الأساطير التي تمثل آراءه في شكل مادى مشخص ومصور ؛ هذا هو شأنه في فهم الحياة الخبوءة وراء الستار الطبيعى . وقد قيل إن الإنسان عرف الروح بعدما فكر في بعض التجارب مثل النوم والحلم والظل والسراب والنفس والموت ، واتسعت هذه الفكرة عنده فهدته إلى معرفة الجن والروح ، وما زالت تتسع شيئاً فشيئاً حتى غشى الطبيعة بالأرواح .

بدأ ابن آدم حياته العقلية بمعرفة المادة والماديات ، واتسعت فكرته هذه في معرفة مظاهر الحياة على جهة التعميم ، فظن أنه لا فرق بينه وبين الموجودات في العصر الذي عرف فيه نفسه ، أي شخصيته الثانية للمستورة التي دعيت بالروح فيما بعد . وقد حملت الإنسان مظاهر الحياة مثل النوم ومشاهدة كل ما يجري من الحوادث في الحلم أن يعتقد أنه ذو شخصيتين ، الشخصية الأولى هي القالب المادى ، والشخصية الثانية هي التي تتراءى له في الحلم ، وبعد ما عرف الإنسان الأول الشخصية الثانية أخذ يطبقها على الأشياء جميعها ، فحسب في الحجر الصامت والشجر النامى شخصية مستورة مثل شخصيته في جسده ، وأصبحت الموجودات التي كانت كلها في نظره عالم الجمادات والسكوت الخاضع لتواميس الطبيعة ذات عالم حيوى كعالم الحلم في ذات نفسه .

هكذا بدأ الإنسان الأول يرى في كل مظهر من مظاهر الطبيعة حياة كما كان يشعر بها في نفسه ، وذلك لأن القوة الفكرية في حالة الطفولة لا تستطيع التفرقة بين المادة وغير المادة ، كما لا يستطيع الطفل أن يميز بين الضار والنافع ؛ رأى النجوم تجرى في فلك السماء ، والأشجار تنمو في الأرض وفوق الجبال ، ورأى خروج النار من بطن الشجر الأخضر والحجر الصامت ، فوقف حائراً أمام هذه الغرائب كلها ، فاكتفت عقليته المتحيرة بأن تحسبها أشخاصاً مثل شخصيته وأن لها حياة مثل حياته . بدأت هذه الفكرة عند الإنسان في العصر الذي كان لا يميز فيه بين الجمادات والحيوانات ، وما يزال المتوحش إلى يومنا هذا لا يفرق بين أفراد الموجودات ، بل هو يجهل الفرق بين الجماد والحياة التي تظهر لنا كظهر الشمس ، حتى إنه ليقدر الأشياء حيث لا يجوز تقديسها . وطبعاً أن يفهم المتوحش أن الإنسان يشبه إنساناً آخر أكثر مما يشبه الحيوان ، وأنه يشبه الحيوان أكثر من النبات ، والنبات يشبه أكثر من الحجر ، لكن الأشياء كلها ذات شخصية

لديه ، والفرق عنده إنما هو فرق فى الصور واختلاف بسيط فى الأشكال .
وأما الحقيقة فهى هى ، وهذا النظر يشبه عقيدة أصحاب وحدة الوجود إلى يومنا
هذا ، إلا أن التوحش لم يتفلسف مثل فلسفة أصحاب تلك العقيدة ، ولم يعرف
حقيقة ما وراء الطبيعة ، بل حصر نفسه بآدى ذى بدء فى حدود الطبيعة نفسها ،
ورأى الحقيقة التى لا حقيقة بعدها هى هذه الطبيعة التى يراها بعينيه ويلبسها
بيديه ، ثم امتد به فكره إلى أفق أبعد ، فجعل صلة بينه وبين الموجودات كصلة
الأبوة والأمومة والأخوة ، ثم جاوز ذلك فقدس الموجودات إجلالا وحفظا لكرامة
الأسلاف . وفى فهرس الأصنام نجد أسماء الأشياء الطبيعية مثل الشمس والقمر
والأرض والسماء والشجر والحجر ، وقد جعل الإنسان علاقته بها كملاقة العبد
بالمعبود ، فخطبها كما كان يخاطب الإله . لم تكن النصب عند الإنسان المتوحش
رمزا للإله ، وإنما جسدا له ومركزا لنشاطه كما كان جسد الإنسان المركز الدائم
لنشاط الإنسان ، وذلك لأن الإنسان فى نظره ليس بعفريت ولا بشبح ولا حياة
بغير جسد ، بل هو جسد صامت مع حياة متحركة ، وهذه الحياة المستورة التى
يتخيلها فى النبات والشجر والحجر جعلته يتوهم أن الأشياء المقدسة كلها ذوات
حياة مستورة مثل حياته .

رأى المتوحش فى الحجر والشجر والحيوان حياة وشخصية كحياته وشخصيته ،
ولم ير نفسه أرفع من الجماد منزلة أو أسمى منه مقاماً فوشج الصلة بين نفسه وبين
الجمادات واعتقد أن الصلة بينه وبينها صلة العبد بالمعبود (ودليل ذلك ما نرى
فى الأساطير القديمة) فالأسطورة اليونانية التى تتعلق بمخاق الإنسان تحدثنا أن آدم
خلق من طين بينا أت بعض الأمم المهمجية ترى أن الإنسان الأول خرج من
بطن الأشجار والأحجار^(١) ، وكثير من الأساطير التى توجد عند قبائل أفريقيا

(١) Folklore in the old testament Vol 1 P. 6

وأستراليا ومدغشقر وبورنيو ترى الإنسان من نسل الحيوان والأشجار^(١) وتوجد هذه الأساطير أيضاً عند الساميين . فعند الساميين الشماليين أن الأم التي حبلت (بحمل) الأدنسس (Adenses) تحولت في شجر المر الكاوي Myrrh في الشهر العاشر من حملها وولدت الشجرة الطفل الذي صار إلهاً فيما بعد^(٢) . ومثل ذلك ما نرى في الأسطورة البابلية التي تقول إن الحيوان خلق من الأرض التي امتزجت بدم الإله (مردوخ)^(٣) .

وقد ذكر « رابرتسن است » أخباراً كثيرة من هذا القبيل في كتابه أديان الساميين (R. S. Page 47) ، وأدب الساميين مثل الأدب البابلي مملوء بالأساطير التي تدل على وجود المذهب الحيوي عندهم .

(١) Folklore in the old testament Vol 1 P. 34. 36. 41

(٢) Page 337 Golden Bough Myth of Adonyses

(٣) Seven tablet of Creation

الفصل الثاني

المذهب الحيوى عند العرب

وجود المذهب الحيوى عند الساميين لا يستلزم ثبوته عند العرب فما هو الدليل على ذلك ؟ لقد بينا أن العربي يميل بالطبع إلى المادة ، ويحب الطبيعة حب العاشق الهائم لحبيبته ، ولذلك يجيد وصف الطبيعة ، والأدب الجاهلى مملوء بالمناظر الطبيعية وبالتشبيهات الرائعة ، والشاعر الجاهلى يبكى على الأطلال ويصغر من الشدائد التى احتملها من الأعداء فى سبيل الحب ، سواء أكانت الأعداء من الإنسان أو من الكائنات كما قال الشاعر :

وليل كوج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم لبيتلى
ثم هو يصف الناقة أو الحصان الذى ركب عليه ليوصله إلى من يرومه ، فهذا الوصف وأمثاله يدل على شدة شغفه بالطبيعة ، فالطبيعة هى مركز النشاط لتصور البدوى ، والمسرح الذى تهيج فيه عواطف العربي الجاهلى ، والسلطة الوحيدة التى يخضع أمام سلطانها العربي القوى العنيد — فهو يلجأ إلى ظل الشجر والجبل بالهار ، ويسامر القمر والنجوم بالليل ، وليس الشجر والجبال التى تحيط به فى الصحراء الوعاء بأشياء عزيزة فحسب ، بل هى أنيسه وسميره ، وهى ذات حياة كحياته ، ولكن ما هى الحياة التى توجد فى الشجر النامى والحجر البركانى كما توجد فى الحيوان جميعاً ؟ وإذا كانت الحياة خارجة عن الطبيعة فليست هى كذلك فى تصور العرب ، لأن الطبيعة هى المذهب . والحقيقة التى لا حقيقة بعدها عندهم . والواقع أن النفس كانت عند العرب عبارة عن دم الحياة كما كانت عند

الإسرائيليين^(١)، قال المسعودي: يتنازع الناس في كفيتهما (الروح)، فمنهم من زعم أن النفس هي السم وأن الروح الهواء الذي كان في باطن الجسم الإنساني الذي منه قسه، ولذلك سموا المرأة قساء^(٢)، وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينسبط في جسم الإنسان فإذا هومات أو قتل لم يزل مطيفاً به متصوراً له في صورة الطائر يصدح على قبره^(٣)، وروى الألويسي: مما كانت العرب كالمجتمعة عليه «الهامة» وذلك أنهم كانوا يقولون ليس من ميت يموت أو قتل يقتل إلا وخرج من رأسه هامة، فإذا كان قتل ولم يؤخذ بثأره نادى الهامة على قبره: اسقوني فإني صديقة^(٤) وقال شاعر جاهلي:

يا عمرو إلا تذر شتى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقوني^(٥)
 فهذا كله يهديننا إلى أن العرب القدماء دهشوا من مظاهر الحياة دهشة الأمم الهمجية، فبحثوا عن حقيقتها، فلما رأوا أنه ما دام الدم يجري في شريان الإنسان فهو حي، فإذا هربق عن جسده فهو ميت كما قالوا: (مات حتف أنفه) قالوا: إن الدم هو الحياة ثم لاحظوا أن النفس جزء مهم في الحياة، فقالوا إن الحياة عبارة عن الهواء الذي في باطن جسم المرء، وظلت هذه الفكرة مدة من الزمان، فأتى جيل بالغوا في تصور النفس الذي يتكون من السم والهواء حتى اعتقدوه طيراً من الطيور التي لها علاقة بالتشاؤم، وهذا الطير هو البومة التي تمثل الخراب والفساد والموت عند الأمم. من هذا الذي عرضناه يثبت أن العربي لم يتصور حقيقة الحياة أو الروح خارجاً عن المادة، فكيف والحالة هذه نسل أنه عرف الحقيقة الخالصة المستورة وراء

(١) Page 40. Religion of the Semites. Foot-note

(٢) صروج الذهب للمسعودي ص ٣٠٩ مطبعة (Société Asiatique)

(٣) المسعودي ص ٣١٠ .

(٤) بلوغ الأرب الجزء الثاني ص ٣١٣

(٥) روى: يا عمرو ألا تدع شتى ومنقصتى .

الحجب الطبيعية ، أو عرف معنى الروح فى العصر الذى كانت الهامة تمثل الروح فى تصورهم ، وكما أمكن تشرح أقوال الرواة فى هذا الصدد استطعنا أن نقول إن العربى إذا كان عرف الروح فقد عرفه فى العصر الذى انتشرت فيه الصابئة واليهود ، لا فى العصر الذى سادت فيه أسطورة الروح المذكورة إذ كانت الحياة عبارة عن الطبيعة نفسها ؛ ويؤكد ذلك أن نرى كيف كان اليهود ينظرون إلى العرب حتى فى عصر بدء الإسلام ؛ فقد ورد فى تفسير الطبرى حدثنا أبو هشام قال حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حرث بالمدينة ومعه عسيب يتوكأ عليه فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم : اسألوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، فقام متوكئاً على عسيبه فقلت خلفه فظننت أنه يوحى إليه قال : « ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » فقال بعضهم لبعض : « ألم تقل لكم لا تسألوه »^(١) . ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل اختلف أهل التأويل فى الروح المسئول عنه : قال بعضهم هو جبريل لأنه الروح الأمين ، وروى عن على أنه قال : الروح ملك له مائة ألف رأس لكل رأس مائة ألف وجه فى كل وجه مائة ألف فم فى كل فم مائة ألف لسان^(٢) . أما صاحب لسان العرب فاقصر على أن الروح نسيم الهواء وكذلك نسيم كل شىء ، فهذا هو الأصح بالنسبة إلى الفكرة العربية لأن العرب أقسمهم كانوا معترفين بمجزم عن فهم الروح والروحانيات كما قيل : بشت قريش النضر بن حارث ومعه عقبة بن أبى معيط إلى أخبار يهود بالمدينة وقالوا لها : سلام عن محمد ، وصفا لم صفته وأخبراهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء^(٣) .

(١) تفسير ابن جرير الطبرى المجلد الخامس عشر ص ١٠٤ .

(٢) الروض الأتف ص ١٩٦ .

(٣) سيرة ابن هشام ص ١٠٢ .

هكذا كان شأن العربي بإزاء الروح والروحانيات ، وإذا كان العربي لم يعرف الروح ، فكيف ثبت له مذهباً حيويًا ؟ صحيح أن العربي العادي لم يعرف حقيقة فوق الطبيعة ، لكن لا أقصد بذلك أنه لا يستطيع التمييز بين الرطب والجاف ، وبين الجامد والسائل ، وبين الحى والميت ، وبديهى أنه يرى الشجر والحجر ساكتين وصامتين ، ويرى فى الجمل والحصان حياة وحركة ، كما يرى السكون شيئاً والحركة شيئاً آخر ، والجماد شيئاً والحيوان شيئاً آخر ؛ فلا يبعد أن تكون الحياة عنده عبارة عن الحركة التى هى ضد السكون ، وذلك ليس بعيد عن القياس ، لأن الحياة يراد بها الحركة نفسها عند الكلدانيين كما قيل كان الروح أو زى (Zi) عندهم عبارة عن ظهور الحياة ، وكان اختبار ظهور الحياة هذه الحركة^(١) ، وكذلك كانت كلمة أتما (Atma) عند الهند القدماء ، وكلمة أيوم (Aeom) عند الأنجلو سكسون (Anglo Sax.) عبارة عن التنفس فى مبدأ الأمر^(٢) . وهذه الفكرة تنطبق على تصورات دينية قديمة ، لأن المتوحش أينما يجد حركة فى شىء يحسبه ذا حياة مستورة عن حواسه ، فلا غرو إذا قلنا إن العربي كان يبحث عن معنى الروح فى الحركة نفسها ، لأن الروح فى الأسطورة العربية طائر تتركه الأبصار وتلمسه الأيدي لاشىء فوق الطبيعة ، وهذا التصور ليس بوم من أوهام الشعراء ولا من محترعات الخيال ، بل حقيقة واضحة وعقيدة مألوفة عند العرب جميعاً .

أما تصور الروح فى شكل الطير ، فليس بشىء غريب خاص بالعرب لأنه يوجد عند الأمم جميعاً فى دور بداوتها . قبائل الهنود فى أمريكا يعتقدون أن الطيور التى تخلق فى الجو ما هى إلا أرواح آبائهم الأولين ، وكذلك الأزديكون

P. 49 Religion of Primitive peoples By Brinton (١)

Chadwick's Growth of Literature, Vol II P 586 (٢)

والبوهاتيون فى أرجينيا يقولون إن أرواح الشهداء تكسى لباس الطيور المفردة وتقفز من زهرة إلى زهرة فى ضوء الشمس^(١) .
 وقصارى القول أن الروح عبارة عن الحياة الطبيعية أو الحركة عند التوحشين وكذلك كانت عند العرب . وهنا نصادف صعوبة أخرى فى تفسير تفكير العرب إذ كانت العرب تعتقد فى الجن والهواتف والغول والسحابة ، وهذا كله يدل على أنهم كانوا يعتقدون فى شىء غير مادى وغير عنصرى وهو يخالف ما قلنا فى عقيدة العرب فى الروح ، ولكن إذا أمعنا النظر رأينا أن الجن والغول وأشباه ذلك ما هى إلا صنف من الحيوان فى تصور العرب القدماء ، وسوف نفسره فى باب المذهب الطومى إن شاء الله . أما إثبات أن العرب رأوا فى الشجر والحجر حياة كحياتهم ، فنستدل عليه بالأساطير التى حكيت عن حياة العرب الاجتماعية .

والذى يظهر لنا فى عقائد العرب القدماء بأجلى مظاهره شغف أهل البادية بحكاية مسخ الإنسان حجرا أو شجرا أو حيواناً ، قليل مثلاً إن الصفا والروة كانتا رجلاً وامرأة ثم مسخا^(٢) حجرتين ، وهكذا قالوا فى أساف ونائلة^(٣) . وكذلك قيل إن العربى لم يأكل الضب لأنه كان يظنه شخصاً إسرائيلياً ثم مسخ^(٤) . وروى الديرى عن مسلم عن أبى سعيد وجابر قالوا إن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بضب فأبى أن يأكله وقال لا أدرى لعله من القرون التى مسخت وقال الديرى فيما بعد : « أما حديث الضب والقار فكان ذلك قبل أن يوحى إليه صلى الله عليه وسلم » فيتبين من كل هذا أن فكرة المسخ كانت منتشرة فى

(١) P. 6. Myths And Legends of Ancient Egypt By Lewis Spince

(٢) عجائب المخلوقات للقزوينى تحت الجبال .

(٣) حياة الحيوان للديرى .

(٤) أخبار مكة للزرقى ص ٦٩ و ٧١ .

شبه الجزيرة قبل الإسلام ويؤيد ذلك ما قال القريري أن « بوادي حضرموت بالقرب منه على مسيرة يومين إلى نجد قوم يقال لهم « الصيبر » يسكنون القفر في أودية ، و فرقة منهم تنقلب ذئاباً ضارية أيام القحط ، وإذا أراد أن يخرج أحدهم من سلاح الذئب إلى هيئة الإنسان وصورته تمرغ بالأرض وإذا به يرجع بشراً سوياً . وقال : إن في وادي حضرموت قبائل منها البراوجة والجلاهية والنبائنة وآل أبي مالك وآل مسلم وآل ابن ربيع وآل أبي الحشرج ، وجميع هذه القبائل لها أحوال عجيبة ، منها أن الرجل منهم يمر في الهواء ليلاً من حضرموت وقد اقلب في هيئة طائر كالرخة والحدأة حتى يبلغ أرض الهند^(١) ، وقيل إن بنت نصر مسخ أسداً فكان ملك السباع . ويعتقد بعض القبائل إلى يومنا هذا أن قبيلة بني صخر من أولاد جبل رملي يقع قريباً من مدائن صالح^(٢) .

وهكذا كثرت رواية القصص التي تتعلق بمسخ الإنسان حيواناً وأحجاراً في شبه جزيرة العرب ، واختلف الناس في المسخ ، فمنهم من زعم أن المسخ لا يتناسل ولا يبقى ، ومنهم من زعم أنه يبقى ويتناسل ، حتى جعل الضب والأرانب والكلاب من أولاد تلك الأم التي مسخت في هذه الصور^(٣) . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل كانوا يخالون أنهم يسمعون من أجواف الأوثان همهمة^(٤) . وكانوا يخاطبون الجبل كما يخاطب الرجل أخاه ، كما قيل : كان المشركون إذا أرادوا الإفاضة قالوا : « أشرق يا ثبير كما تغير » وكانت الشمس تشرق من ناحية جبل ثبير^(٥) .

(١) الطرفة الغربية ؟ أخبار وادي حضرموت العجيبة ؛ لأحمد علي عبد القادر بن محمد

القريري ص ١٩ و ٢٠ .

(٢) P. 17 Doughty's Arabia deserta.

(٣) الحيوان للباحظ المجلد الرابع ص ٢٤ .

(٤) كتاب الأصنام ص ١٢ .

(٥) « ثبير » معجم البلدان .

وكانت الجبال تؤثر في حياة الإنسان ، كما كان للشاعر والكهان أثر في حياته الاجتماعية ، فكان من تأثير جبل أبي قبيس أنه يزيل وجع الرأس ، ومن تأثير جبل خودقور أنه يعلم السحر . أما الشجر فلم يكن أقل شأنًا في حياة العرب الاجتماعية ، فكان العربي يجعل القرابة بينه وبين النخل كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أكرموا عماتكم النخل » ، وقال القزويني : « إنما سماها عماتنا لأنها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام » ، وأما الضمير في « عماتكم » فيدل على أن النبي عليه الصلاة والسلام أراد به إظهار عقلية الجاهلية فكلم الناس على قدر عقولهم . ولم يكن غريباً أن يتوهم العربي القرابة بينه وبين النخل ، وذلك لأن عقله البسيط رأى شبه الإنسانية في النخلة ، فهي تشبه الإنسان من حيث امتياز ذكرها عن أنثاها ومميزاتها المخصوصة باللقاح . فقد قال القزويني (١) : (ولو قطع رأسها هلكت ، ولها غلاف كالشميمة التي يكون الجنين فيها ، والجار الذي على رأسها لو أصابته آفة هلكت النخلة كهيئة مخ الإنسان إذا أصابته آفة ، ولو قطع منها غصن لا يرجع بدله كعضو الإنسان ، وعليها ليف كالشعر يكون على الإنسان . وروى عن صاحب الفلاحة أنه إذا لم يثمر بعض النخل يأخذ رجل فأساً ويقرب منه ويقول لغيره : إني أريد قطع هذه الشجرة لأنها لا تثمر ، فيقول الآخر : لا تفعل فإنها تثمر في هذه السنة ، فيقول الرجل : إنها لا تفعل شيئاً ، ويضربها ضربتين أو ثلاثاً ، فيمسك الآخر بيده ويقول : لا تفعل فإنها شجرة حسنة ، واصبر عليها هذه السنة ، فإن لم تثمر فاصنع بها ما شئت . قال فإذا فعل ذلك فإن الشجرة تثمر ثمراً كثيراً ، وكذلك غير النخل من الأشجار إذا فعل به هذا يثمر . وقال أيضاً : إذا قاربت بين ذكران النخل وإنثاها فإنها يكثر حملها ، لأنها تستأنس بالمجاورة وإذا قطع إلفها من الذكران فلا تحمل شيئاً لقراقها ، وإذا

(١) عجائب المخلوقات للقزويني ص ٢٣١ « غيرنا بعض الكلمات نظراً لأغلاط الطبع » .

غرست الذكران وسط الإناث فهبت الريح فخالطت الإناث رائحة طلع الذكر حملت من تلك الرائحة كل أتى حوله ، وإن اتخذت لها منطقة من الأسرب (يكثر ثمرها) . وكذلك كان اعتقادهم في الرتم ، لأنهم كانوا يرون في الأشجار حياة وشعوراً مثلهم ، فكان العربي يجعلها رقيباً وحارساً على زوجته في مدة غيابه كما قيل إن العرب في الجاهلية كانوا إذا أراد أحدهم أن يسافر عن حليلته عمد إلى هذه الشجرة وشد غصناً منها إلى الآخر وتركها ، فإذا عاد من سفره ذهب إليها فإن وجدها بمجالها مشدودين استدل بهما على أن حليلته ما خانت في غيبته وإن وجدها محلولين استدل بهما على خيانتها^(١) . وكذلك كانوا يعملون في الشجر العشر وقالوا إنها سم قاتل ، فالحتمل أن تكون الشجرة من الأشجار المخيفة في مبدأ الأمر لكونها سما قاتلاً لذلك خافوا من قرينتها ، وبعد مرور الزمان أصبح الخوف هذا تقليداً من تقاليد العرب الجاهلية ، وكانت العرب إذا ولدت المرأة منهم أخذوا دم السمرو ويسمونه بحيض السمرة وهو صمغه الذي يسيل منه فينقطون منه بين عين النساء ويمخطون على وجه الصبي خطأ خوفاً عليه من الخطفة والنظرة ويسمونه بالنفرات . ذلك إلى أن العربي كان يعبد الأشجار ويرى فيها روح الشر مثل الحماطة ، وهي شجرة شبيهة بالتين ، وهو أحب الشجر إلى الحيات ، أو العشر التي كانت العرب تظنها مسكن الشياطين قبيل الإسلام . وإذا كان العلم بالجن والشياطين علماً حديثاً وفكرة دينية ، فإن وجود فكرة مثل هذه تدل نفسها على أن تلك الأشجار كانت ذات حيوية عند العرب ، وأن هذه الحيوية تحولت في صورة الشياطين في عصر الأديان ، كما أصبحت الآلهة القديمة جنا في عصر اليهود والنصارى ؛ فتطور حيوية الأشجار في أرواح الشياطين إنما كان وقت انتشار الأديان في شبه جزيرة العرب . ومن ذلك ما قيل من أن

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣١٦ .

العزى وهى من آلهة العرب القدماء كانت شيطانة . أما ظهور العزى على ثلاث شجرات سمرات فهو يدل على الفكرة ، لأن الأشجار التى كانت تمثل روح الشجر نفسه أصبحت محل حلول تلك الأرواح التى تقيم فيه وتهجره كيفما تشاء . فهذه العقيدة تدل على أن هذه الفكرة تطورت من حيوية الشجر إلى الوهيته . وههنا نلاحظ أن فكرة البادية انتقلت من طور إلى طور آخر وهو أن حيوية الشجر والحجر تطورت إلى صورة الجن والأرواح التى تسكنه ، فأصبحت الأشجار والأحجار من بقايا تبركات تلك الأرواح ، وهذه الفكرة المعكوسة إنما هى رد فعل لتطور الحيوية وهو ما نسميه بالمذهب الفيتشى (Fetishism) فحيثما وجدنا المذهب الحيوى نجد المذهب الفيتشى فى أثره . فوجود الواحد فى أمة من الأمم يستدعى وجود الآخر فيها لأنهما مذهبان متلازمان .

أما الفرق بين المذهب الفيتشى والمذهب الحيوى فهو أن الثَّصُب فى المذهب الحيوى هو الشخصية الوحيدة للإله المنسوب إليه ، وفى المذهب الفيتشى ليس بإله بل محل للإله المتجول فى الآفاق . وكذلك المذهب الطوتى يختلف عن المذهب الفيتشى بأن الشئ فى المذهب الفيتشى ينفذ أوامر الإله المسلط عليه ، لكون الشئ فى المذهب الطوتى هو ملجأ الجاهليين ومأوأم ، فالطوتى هو الإله ، وآثار الطوتى مطية الإله . فالمذهب الفيتشى يتعلق بتقدس الأشياء كبيرة كانت أو صغيرة ، طبيعية كانت أو مصنوعة ؛ ويرى أن لكل مادة من تلك الأشياء روحاً تحتل الجسم أو تتصل به ولها سلطان على الأجسام الأخرى ، كما قيل إن عبيد غابة كانوا إذا خرجوا إلى السفر أقسموا أمام أول كائن يبصرونه أنهم يخلصونه بأنواع العبادة إذا وقعوا فى سفرتهم ، فعبدوا لذلك الأشجار وأغصانها وجذورها وقشورها والمغرم والریش والنباب والمخلب والحافر والسن والظفر والحجر وأنواع الحيوانات وآلات الحرب والشمس والقمر وغير ذلك ، معتقدين أن لها

قوة مؤثرة وقدموا لها القرابين باعتبار الروح التي تتصل بها أو تحتلها ، واتخذوها تيمية تقيهم عوادي الأيام ؛ وهذه ديانة كل الأمم المتوحشة ، واعتنق هذا الدين كثير من العرب^(١) ، فكانوا يعتقدون أن سبب المرض روح شرير حل فيه ، فيداوونه بما يطرد هذه الأرواح ، وإذا خيف على الرجل الجنون نجسوه بتطبيق الأقدار وعظام الموتى ، وإذا أراد رجل دخول القرية فخاف وباءها أو جنيتها وقف على بابها قبل أن يدخلها فتهق نهيق الحمار^(٢) ، ثم علق عليه كعب أرنب ، كأن ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن ، وسموا هذا التهيق التمشير ، وقال شاعر :

ولا ينفع التمشير إن حم واقع ولا زعزع يفتى ولا كعب أرنب
وكذلك كانت^(٣) العرب تطلق على الصبي سن ثعلب وسن هرة خوفاً من الخطف والنظرة ، ومن مذاهب العرب أيضاً تعليق الحللي^(٤) والجلاجل على اللديغ يرون أنه بذلك يفيق^(٥) ، وكان الغلام منهم إذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال : يا شمس أبدليني بأحسن منها . وهكذا كانت شأنهم في بعض تقاليدهم مثل الرتم والنفرات والاستمطار بالبقر وغير ذلك^(٦) .

-
- (١) أديان العرب لمحمد نعيان الجارم ص ١٢٢ مطبعة السادة بمصر .
 (٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣١٥ .
 (٣) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٢٥ .
 (٤) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣١٤ .
 (٥) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣١٨ .
 (٦) بلوغ الأرب للآلوسي .

الباب الثالث

المذهب الطوتمى

الفصل الأول

نظرية المذهب الطوتمى

١ — تعريف الطوتمية : الطوتمية كلمة أبجوية (Objeway) من هنود أمريكا دخلت في اللغة الإنجليزية سنة ألف وسبعمائة وإحدى وتسعين على يد الأستاذ جى لانج (J. Lang) الذى كان يقوم بوظيفة الترجمان بين البيض والهنود الحمراء في أمريكا الشمالية ؛ ويزاد بها كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوتمه ، وقد يكون الطوتم حيواناً أو نباتاً ، وهو يحمى صاحبه ويبعث إليه الأحلام اللذيذة ، وصاحبه يحترمه ويقده ، فإذا كان حيواناً فلا يقدم على قتله ، أو نباتاً فلا يقطعه ولا يأكله إلا في الأزمة الشديدة^(١) .

٢ — نظرات الطوتمية : اختلف العلماء في بدء الطوتمية ، وذهب الباحثون فيه مذاهب شتى ، فمنهم من قال إن الطوتمية ترمى إلى نشاط تعاونى في الأعمال لتجهيز المواد الأولية بمقدار كبير لأفراد القبيلة ، ومنهم من قال إن الطوتم كان في مبدأ الأمر بهيا وحشيا ، ووجد في بيئة بحرية ، ومن ثم نشأ الإنسان الذى ينتسب إلى جده الطوتمى ؛ فهاتان النظريتان دعنا إلى قيام مدرستين^(٢) ، فمن

(١) Encyclopedia Britanica and Totemism & exagomy

(٢)

أساتذة المدرسة الأولى بربرت استيد الذي قال : « إن الطوتمية بدأت من سوء تفسير الألقاب » ، 'Misinterpretation of nick - names' ^(١) . وأراد بذلك أن المتوحشين سمو أنفسهم بالأشياء الطبيعية التي اختلطت بأسماء الأسلاف ، ثم تقدست تلك الأشياء مع تقديس الآباء على مرور الزمان ، فاعترض عليه المعارضون بأن سوء التفسير لا يؤثر عادة في الحياة الاجتماعية إلى هذا الحد ، فأقام فريزر (Frazer) مدرسة أخرى وزعم أن الطوتمية عند القبائل في وسط استراليا — لو صح استنباطنا من طقوس انتيجيوما (Intichiuma) — تدل على أنها نظام قائم على قواعد السحر والطمس ، يريد به أهل الطوتم استكثار المواد لسد الحاجة ^(٢) ؛ واقفه أخيرا على ذلك « سبنسر » إذ قال : « إن الطوتمية في اعتبارها الديني قديمة جدا » ، أما اعتبارها الاجتماعي المستمر إلى يومنا عند قبائل استراليا فهو طراز جديد ، فاتفقت كلتا المدرستين على كون الطوتمية دينية بحيث في مبدئها — ثم تفرعت إلى نوعين ، نوع ديني وآخر اجتماعي ، فمن الوجهة الدينية يسمي أفراد القبائل أنفسهم بأسماء الطوتم ، ويعتقدون أنه أب للقبيلة ، وأنهم من نسله ، فمن قبائل ^(٣) ايروكو (Iroquois) من هنود أمريكا قبيلة تعرف بقبيلة السلحفاة ، وأخرى تعرف بقبيلة الذئب واللب ، وهم يعتقدون أنهم من نسل اللب والذئب ، وتنتمي قبيلة أوبجيوييس (Objiiways) إلى الكلب ، كما كان الكركي أبا لقبيلة الكركي عند أوبجيوييس ^(٤) ، وكما كان الإوز أبا لقبيلة سنتال في بنغال ^(٥) ؛ وقس على ذلك قبائل في غرب استراليا تنسب إلى البط أو الإوز أو غيرها من الطيور المائية ^(٦) ، فكل من هذه

(١) P. 367 Principales of Sociology

(٢) P. 87. Totemism & Exogamy By Frazer

(٣) اعتبارات قديمة .

(٤) P. 5. Totemism & Exogamy

(٥) : « « « « «

(٦) P. 7. « « «

الحيوانات كانت تحترم وتقديس . وكانت القبيلة لا تؤذي طوتمها ولا تقتله ولا تأكله ، والرجل من قبيلة مونت جامبير (Mount Jambier) ^(١) في جنوب استراليا لا يأكل طوتمه إلا إذا عضه الجوع ، وإذا أكله أسف واستغفر ، وكذلك الهنود في كولومبيا البريطانية (British Columbia) لا يأكلون طوتمهم ؛ وإذا رأوا أحدا يأكله اشمأزوا وطلبوا منه غرامة .

٣ — وإذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل أهلها بدفنه ، وحزنوا عليه حزنهم على واحد منهم ؛ ففي قبيلة البومة في ساموا (Samoa) إذا وجد أحد رجالها بومة ميتة فإنه يقعد إلى جانبها ويأخذ في الندب والبكاء ويضرب جبينه بالحجارة حتى يدميه ، ثم يكفن البومة ويحملها إلى المدفن كما يفعل إذا مات الإنسان .

٤ — ولا يقتصر احترامهم الطوتم على تحريم أكله أو إيذائه فإن بعضهم يحرم لمسه والنظر إليه ، وقد يحرمون التلفظ باسم الطوتم ، وإذا اضطروا إلى ذكره عمدوا إلى الكناية أو الإشارة . فمن هنود دولاورس ^(٢) (Delawares) في أمريكا قبيلة تنسب إلى الذئب وأخرى إلى السلحفاة وأخرى إلى ديك الحبش فإذا اضطروا إلى ذكرها كنوا عن الأول بالقدم المستديرة ، وعن الثاني بالزاحف وعن الثالث بغير الناصع ؛ والقبائل المذكورة تعرف بهذه الكنايات .

٥ — ويعتقدون أن من أهان الطوتم أو أساء إليه يصاب بالمصائب والنكبات . قبيلة باكالي ^(٣) (Bakali) تعتقد أن من يأكل طوتمه تلد نساء قبيلته حيوانات مثل الطوتم أو يموت بمرض مهلك ؛ وبعضهم يتوهم أن آكل

P. 8. Totemism & Exagomy (١)

P. 16 Totemism & Exagomy by Frazer (٢)

، ، ، ، ، ، ، (٣)

طوتمه يجازى بالموت بأن يقيم الطوتم في بدنه ولا يزال يأكل منه حتى يموت .
ويؤمنون من الجهة الأخرى بأن من احترم الطوتم احترمه الطوتم أيضاً فإذا كان
الطوتم في سنغيبيا (Senegambia) من السباع أو من الحيات أو من العقارب
فإنهم لا يخافون لسعها^(١) ، لأنهم على ثقة أن الحياة لا تلسعهم . وفي أوماها
(Omaha) يداوى أصحاب الطب المريض بتصوير صورة طوتمه أو يحكون صوته
أو عمله حينما يعالجونه .

٦ - وكذلك يتوهم أصحاب الطوتم أن الطوتم ينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه
بعلامات أو رموز على نحو ما يعبر عنه بالقال والطيرة . فإذا طار البوم أمام قبيلة
البومة وقت خروجهم إلى الحرب تقاءلوا به ، وإذا طار وراهم تشاءموا منه ورجعوا
من حيث أتوا^(٢) .

أما الطوتومية من الوجهة الاجتماعية فمظهرها تماقد أهل القبيلة فيما بينهم باعتبار
علاقتها بالقبائل الأخرى . وكانت الروابط الطوتومية هذه أشد ما تكون بين
أفراد العائلة الواحدة المبنية على صلة الرحم ، ويتبين هذا جليا في قبائل أستراليا
الغربية وأمريكا الشمالية الغربية^(٣) ؛ ففي قبائل جيجروس (Geojiros) إذا
أراد الرجل الانتحار أو الإضرار بنفسه فعليه الدية .

ومن أهم الروابط الطوتومية أن رجال الطوتم الواحد ونساءه لا يتزوجون من
قبيلتهم ، وهو ما يعبر عنه علماء العمران بالزواج الخارجى ، ومن يخالف تلك الشريعة
يعاقب بالموت في أستراليا^(٤) . وعند الهنود الكريك (Creek)^(٥) لا تزوج

P. 20. Totemism & Exagomy by Frazer (١)

• 23. • • • • (٢)

Totemism & Exagomy P. 53 (٣)

• • P. 54 (٤)

• • P. 56 (٥)

قبيلة الذئب من قبيلة الذئب الأخرى ، لأن هذا يؤدي إلى الأمومة ، إذ المولود في هذه الشريعة ينتسب إلى الأم ويتبع طوتم أمه لا طوتم أبيه ، كما هو معروف عند قبائل استراليا وأمريكا الشمالية^(١) . غير أن هذه ليست قاعدة مطردة ، لأن هناك قبائل تنسب إلى الأب كما تنسب إلى الأم^(٢) ، كما إن قبائل أخرى وجدت وهي ليست مبنية على الزواج الخارجي ، فقد قيل أن قبيلة آرتنا في وسط استراليا تعتقد أن للمرأة تحمل بدخول روح من أرواح النبات والحيوان الساقطة التي تنتقل من مكان إلى مكان في جسدها . فالولادة هي عودة ذلك الروح في شكل المولود ، كما كانت الروح التي دخلت في المرأة وقت ظهور الحمل هي الطوتم المولود . وتختلف قبيلة آرتنا عن القبائل الأخرى بأنها مع اعترافها بتقمص الروح الحيواني في شكل المولود فإنها تنسب تلك الأرواح إلى حجر تسميه الشرنجة (Churinga) ؛ فهذه الطوتمية غير وراثية وليست مبنية على الزواج الخارجي ، لأن الطوتم بانتسابه لذلك الحجر ولتلك الأرواح المتعلقة بإمكانه متعددة صار طوتماً محلياً . فإن الطوتم قد يخرج من قبيلته الأصلية ويدخل في قبيلة أخرى ، كما أنه يستطيع أن ينحطب امرأة تحمل الطوتم مثله^(٣) .

والخلاصة أن العلماء اختلفوا في بدء الطوتمية وفي أغراضها وفي أسبابها ونظرياتها واعتباراتها ، وظهر من هذه الاختلافات المتباينة أن بدء الطوتمية غير محدود ومتنذر تحديده لبعدها عن عمر التاريخ . وكل ما نعرف عن هذه الطوتمية هو أن أمة همجية في دور بداوتها كانت تقدر النبات والحيوان ، وفي أكثر الأحوال كانت تعتقد بعلاقة بينها وبين الحيوان المنسوب إليها . فالطوتم بالنظر

Totemism & Exogomy (١)

Totemism & Exogomy P. 66 & 67. (٢)

Encyclopedia Britanica "Totemism" (٣)

إلى التقاليد المختلفة عند عدة قبائل يظهر في ثلاث طبقات : أولاً الطوتم القبلي ،
وثانياً الطوتم الجنسي ، وثالثاً الطوتم الشخصي . وتختلف الطوتمية عن الليانة
القيتسية بأن الطوتم لم يكن شيئاً منفرداً بذاته ، بل هو يمثل جماعة من جنس
واحد بخلاف العبادة القيتسية .

وإذا كانت الطوتمية هذه تحتاج إلى تحديد نظريتها ، فإذا يكون شأن
الاعتبارات والشروط التي يهتم بها العلماء اهتماماً عظيماً ، فمن يقول إنه يستلزم
الأمومة لأن الأبوة متأخرة عن الأمومة ، فلا أرى لزاماً أو داعياً لثبوت الطوتمية
وذلك لأن الأمومة نتيجة من نتائج الطوتمية الاجتماعية ، وذلك لا يحصل
إلا بعد تطور الطوتمية من الوجهة الدينية إلى الوجهة الاجتماعية فلا يلزمنا لثبوت
الطوتمية أن نثبت الزواج الخارجي والأمومة لأنها تولد منها ولا تولد منها .

الفصل الثاني

المذهب الطوتمي عند العرب

بدأت الطوتمية عند المتوحشين ولا نعرف كيف كانت نشأتها ، وكذلك نرى آثار الطوتمية عند العرب ولا نعرف كيف كان منشؤها في الجاهلية . وقد استمرت الطوتمية عند الأمم الهمجية ولا تزال عند قبائل استراليا وجنوب أمريكا وأفريقيا والهند كما كانت عند العرب القدماء ، ولا تزال آثارها ظاهرة في أخبار الجاهليين فعلينا أن ننظر في الآثار الباقية عن العرب الجاهلية لتبين مبلغ ما فيها من العقائد الطوتمية .

أما الطوتمية فبنية على اعتبارين : اعتبار ديني واعتبار اجتماعي ، وتختلف القبائل بعضها عن بعض بهذين الاعتبارين وفق البيئة المحلية . فهما متلازمان عند البعض ، وينفرد الاعتبار الاجتماعي وحده عند البعض الآخر ، كما أن الطوتمية باعتبارها الديني توجد في الأقاليم التي ذهبت عنها الطوتمية باعتبارها الاجتماعي^(١) .

فلنبحث الطوتمية من وجهتها الاجتماعية عند العرب . وللطوتمية الاجتماعية ثلاثة مظاهر : (١) التعاون المتبادل (٢) الزواج الخارجي (٣) الأمومة .

التعاون المتبادل :

كانت القبيلة أو الشعب عند العرب تتفرع إلى عشائر و بطون وأفخاذ ونحو

P. 3. Totemism & Exagomy Frazer (١)

ذلك ، وكان لكل قبيلة بئروكلأ وأودية خاصة بها كحى كليب بن وائل وزمزم ، وكانت سلطة الشيوخ على القبائل العربية كما نعلمه محدودة ، لأن العرب كانوا أهل حل وترحال يغيرون شيوخهم بتغيير أمكنتهم . وكان تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من قومه هو أن يشتهر اسمه برياسة أو شجاعة أو كثرة ولد أو غيره فتنسب بنوه وسائر أعقابه إليه ، وربما انتسب إليه غير أعقابه من عشيرته كاخوته ونحوم فيقال فلان الطائي . فإذا أتى من عقبه من اشتهر منهم أيضاً لسبب من الأسباب المتقدمة نسبت إليه بنوه وجعلت قبيلة ثانية^(٢) بل كان الرجل من بني كلاب يستطيع أن ينسب إلى بني أسد لأجل شجاعته^(٣) ، وهذا خلاف ما يرى أهل الطوتم في قبائلهم لأن قبيلة أسد عندهم لن ينسب أحدها إلى قبيلة كلب .

ومع أن أفراد القبيلة الواحدة يعدون إخوة وأخوات يتعاونون في السراء والضراء كما قالوا : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، فقد كانت الحروب تسود بين بطون القبيلة الواحدة إذا تشعبت بطونها كالعداوة بين ربيعة ومضر وبين عبس وذبيان ، وبكر وتغلب ، والأوس والخزرج ، وعبد شمس وهاشم . وأحياناً كانت القبائل العربية تساعد المظلوم ضد بطونها ، وكان الفرد يحارب قبيلته نفسها كما يقال : « أغار ناس من شيبان على رجل من بني العنبر يقال له قريط بن أنيف وأخذوا ثلاثين بعيراً ، فاستنجد قومه فلم ينجدوه ، فأتى بني مازن فركب معه ثمر فآطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه وخرجوا معه حتى صاروا إلى قومه فقال قريط :

- (١) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١ .
- (٢) ديوان الحماسة المجلد الأول ص ١٣ .
- (٣) كما يقال له حليف بني فلان .
- (٤) ديوان الحماسة المجلد الأول ص ١٣ .

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي بنو القبيطة من ذهل بن شيبانا
وهذا أيضاً يخالف الشريعة الطومية ، لأن الشريعة الطومية تلزم أصحاب
الطوم الواحد أن يتعاونوا على أصحاب الطوم الآخر إذا نشبت الحرب فيقاتل
الرجل عن زوجته والولد عن أبيه وأمه .

الزواج الخارجى :

إذا نظرنا إلى أنواع الزواج عند العرب وجدنا أن العرب لم ينظر إلى الزواج
الخارجى من حيث هو الشريعة المطردة ؛ لأن الباحثين عن الأمومة اضطروا أن
يسلموا بوجود أربعة روابط فى الجاهلية وهى : النكاح الشرعى^(١) ونكاح
الاستبضاع^(٢) ، ونكاح^(٣) يجتمع الرهط فيه ما دون العشرة ، ونكاح آخر
يجتمع فيه الناس الكثير^(٤) ، فنصوص هذه الزيجات الأربع لا تقيّد الرجل
أو المرأة بأن لا يتزوجا من داخل قبيلتهما ، وهالك نصا تاريخيا من المعجم
الجغرافى للسائح اليونانى الشهير استرابون (Strabo) حيث قال فى أمر الزواج
عند العرب : « كانوا يعاقبون الزانى بالموت ، والزانى عندهم من جامع امرأة من
غير عشيرته »^(٥) . فهذا نص يهديننا إلى أن الشريعة المعتادة عند العرب أن
يتزوج الرجل من داخل عشيرته ، والواقع أن هذه العادة المتأصلة فى أخلاقهم
أجيالا ما تزال إلى يومنا هذا ، فالبدو لا يزالون يفضلون أكبر أبناء العم فى حق
التزوج بابنة عمه^(٦) ، وكان العرب يقولون إذا تزوجت فى غربة : « لا أيسرت
ولا أذكرت ، فإنك تدينين البعداء وتلدن الأعداء » . فان دلت هذه الأقوال

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) : الجزء السادس من صحيح البخارى .

P. 395 "The Geography of Strabo, Volume VII edited by I. L. Page (٥)
Litt. D.

P. 137 "The manners & Customs of the Rewala Bedowins by Alois (٦)
Musil 1928 edition

والآثار على شيء فانها تدل على الزواج الداخلى عند العرب ، أما القول بأن سماحهم بالزواج بين أبناء العمومة خلافاً للمأثور عنهم عن ذم الزواج بين الأقارب يدل على نظام الأمومة ، فهو تعليل كما يرى الأستاذ ناشد سيفين^(١) يكون صحيحاً إذا ثبت أن الزواج بين الأقارب غير أبناء العمومة كان ممنوعاً عند العرب .

وخلاصة القول أن القرشى كان يفضل القرشية خلاف المأثور عن ذم الزواج بين الأقارب ، ولهذا أرى الأقوال الحكيمة مثل « النزايح لا القرائب » إنما هي تجارب متأخرة عن تلك العادة القديمة المتأصلة ، فهذا الزواج الداخلى عند العرب يخالف الشريعة الطوتمية التى تلزم قبيلة الذئب منه أن لا يتزوج من بين نساء قبيلة الذئب — ولكن لا أريد بهذا الزعم أن أقول إن العرب حصروا الزواج فى داخل القبيلة ، بل أريد أنهم لم يكونوا شديدي التمسك بشعيرة الزواج كأصحاب الطوتم فى استراليا وأمريكا .

الأمومة :

الأمومة عند القبائل الطوتمية تختلف فى مظاهرها باختلاف القبائل أو البلاد ، ففى بعض القبائل الأسترالية يرث الابن طوتم أبيه ، وترث البنت طوتم أمها كما روى عن قبيلة ديرى (Dieri) فى جنوب استراليا^(١) ووجد فى استراليا كثير من القبائل ينتمى بعضها إلى الأم وبعضها إلى الأب ، فليس من الضرورى أن تنسب القبيلة الطوتمية إلى الأمومة دائماً ، فقد قيل : « إن الأبوة والأمومة ليست إحداهما بأقدم فى العهد من الأخرى ، فيجوز أن تبتدى إحدى القبائل بالأبوة والأخرى بالأمومة ، فلا يستطيع أحد أن

(١) مجلة المتطف يناير سنة ١٩٣١ مجلد (٧٨) .

(٢) Totemism P. 69

يحتج بأنه لم يكن كذلك»^(١) . بناء على ذلك لا أرى داعياً للتمحيص عن الأمم عند العرب ، لأن ثبوت الأمم يتوقف على ثبوت الطوتمية الاجتماعية لا العكس ، كما أتى لا أناقش جميع الأدلة التي جاء بها ولكن (G. A. Wilkin) في مقاله « الأمم عند العرب » مقتنعاً بما ردد به الأستاذ ناشد سيفين في مجلة المقتطف (يناير سنة ١٣١١ مجلد ٧٨) ، بل أزيد على أدلته التي تتعلق بموضوع البحث — بدأ « ولكن » بتحليل زواج الاستبضاع والمتعة وزواج المشاركة ، واستنتج منها : « أنه سر على العرب الجاهلية ربح من الزمن لم يكن فيه للولد — وذلك إما لشيوع زواج المشاركة بينهم أو لأسباب أخرى نجهلها — أب حقيقى^(٢) فأدى هذا إلى شيوع نظام الأمم عند العرب » . لكن هذا الاستنتاج مبنى على اعتقاد أن زواج المشاركة هو وحده الذى كان منتشراً في الجاهلية ، وهذا تحريف في التاريخ ، لأن (Wilkin) نفسه يعترف بأن أنواعاً أخرى من الزواج كانت سائدة عند العرب الجاهلية ، فاستنباطه هذا لا ينطبق على جميع طبقات الأمة العربية التي كانت تسلك مسلكاً غير زواج المشاركة ، أما الاستبضاع والمتعة فهما لا يؤديان إلى عدم معرفة الأب ، بل المرأة التي كانت تطلب نجابة الولد كانت تعرف أبا المولود ، وكذلك المتعة كانت لأجل معين ، وهذه المدة مهما كانت قصيرة فإنها تكفى لانتساب الولد إلى زوج أمه الأخير ، لأن المرأة العريقة هي التي كانت تنسب الولد إلى أبيه في مثل هذا الزواج^(٣) وفضلاً عن ذلك فإن زواج المشاركة نفسه لا يؤدي إلى ما قاله ولكن (Wilkin) لأن الروايات التي دعت إلى أن يستنبط منها زواج المشاركة تقول

(١) Encyclopedia Britanica Totemism.

(٢) الأمم عند العرب صفحته ٣٥ .

(٣) كما يقال إن أم قضاة مات عنها مالك بن حير وهي حامل ، فتزوجها معد بن عدنان فولدت قضاة على فراشه فتبناه فنسب إليه (صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٦) .

صراحة إن انتشار زواج المشاركة أدى إلى انتشار الطريقة الاصطناعية لانتساب الولد إلى أبيه حيث قيل إن القافة كانت تعين لكل ولد والدا^(١) . أما القياس على أن زواج المشاركة أقدم أنواع الزواج كلها فليس لدينا ثبوت تاريخي على ذلك ، أما الواد فلم يكن موجوداً عند أكثر القبائل ، ولا يؤدي إلى قلة عدد البنات ، بل ولا إلى الزواج الخارجي عند صاحب الأمومة نفسه .

وقصارى القول أن الطوتمية من وجهتها الاجتماعية ليست موجودة في آثار العرب الجاهلية . فلننظر ما إذا كان شأن العرب بإزاء الطوتمية في وجهتها الدينية .
تتلخص مظاهر الطوتمة باعتبارها الديني فيما يلي :

- (١) القبيلة تتسمى باسم الحيوان .
- (٢) القبيلة تتخذ حيواناً أباً لها وتعتقد أنها سلالة منه .
- (٣) صاحب الطوتم لا يؤذى طوتمه ولا يأكله إلا إذا عضه الجوع .
- (٤) يحرم اللبس والنظر إليه ويحرم التلفظ باسم الطوتم .
- (٥) إذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل أهلها بدفنه وحزنوا عليه .

- (٦) الطوتم يدافع عن قبيلته في ساحة القتال ، وينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بعلامات مثل الطيرة .
- (٧) عبادة الطوتم .

(١) نعم كانت العرب تتسمى باسم الحيوان والنباتات ، وهالك بعض أسماء القبائل :

بنو أسد ، بنو جعدة ، بنو ضب ، بنو فهد ، بنو بدن ، بنو جعل ، بنو ضبعة ، بنو كلب ، بنو بكر ، بنو حذاء ، بنو عضل ، بنو نعام ، بهته ، حمامة ، عز ،

(١) صحيح البخارى الجزء السادس « باب النكاح » .

نمر، ثعلب، حنش، غراب، وبر، ثور، دُول، فهد، هوزن، جحش، دب، قرد، يربوع، جراد، ذئب، قنفذ، ظبيان، عقاب^(١)، أوس.

وزد على ذلك قريشا بمعنى (الحوت)، ولخا بمعنى (الحوت) أيضاً، وحمير جندب؛ ومن النبات حنظلة والنبوت^(٢)، ومن أجزاء الأرض فهر وصخر^(٣)، وفي تعليل هذه الأسماء رأيان: الأول أن هذه الأسماء ألقاب على زعم علماء أنساب العرب، وكانت تطلق على أشخاص تاريخية معروفة انتقلت منهم بالتسلسل إلى خلفهم، ثم أصبح كل منها لقباً لعشيرة أو قبيلة. مثال ذلك أن بني كلب اتخذوا لقبهم عن شخص تاريخي معلوم وهو كلب بن وبرة بن ثعلبة جد قضاة^(٤). والثاني أن لهذه الأسماء — على زعم بعض المستشرقين — معاني دينية، وأن لها علاقة بعبادة الحيوانات كما هو مشاهد في المذهب الطوتمي.

أما ما يتعلق بالقول الأول فهاك ما قال عنه المستشرق الشهير نولدك: «وقد حان للعلماء أن يلقوا وراء ظهورهم تلك الآراء الصبغانية التي تحاول أن تمنعنا بنسب الأنساب العربية التي لفقها محمد الكلابي وابنه هشام وغيرها ليبيّنوا أن صلة القرابة بين العائلات العربية المعاصرة لهم والقبائل القديمة خالية من كل تفتيق وتزوير، أمن المعقول ياترى أن تنسب جميع قبائل بني قيس النازلة في أواسط بلاد العرب إلى شخص واحد هو قيس المتوفى، كما يزعمون، قبل ظهور المسيح بمدة قليلة، والذي عندي أنه لا أحد من الشعوب والقبائل العظيمة يعرف حقيقة الشخص الذي ينتسب إليه^(٥)»، هذا قول المستشرق الشهير في أنساب

(١) أنساب العرب القدماء (جورجي زيدان).

(٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٢.

(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٣٢٤.

(٤) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٦.

(٥) الأمومة عند العرب ص ٥ — أخذت ترجمته من صاحب الأمومة الذي نقله من:

Zeitscher der Seutchen "Morguel".

العرب . وأما الأستاذ جورجى زيدان فقد قال : « ومع اعتقاداتنا لا ننكر ما يتخلل تلك الروايات من الأمور الموضوعية ، إذ لا يتأتى التواطؤ إلى هذا الحد ، نعم هنا اختلاف فى أسماء الرجال والقبائل ، وتلفيق وتزوير فى الروايات ، ولكن وجود هذا الاختلاف لا يدل على فساد النسب من أساسه ، كما أن اختلاف الرواة فى تفاصيل إحدى الوقائع التاريخية لا يدل على أنها لم تقع ^(١) » .

أما أنا بصفتى باحثاً فى أساطير العرب ، فإنى لا أرى داعياً لتصديق الأنساب أو لتكذيبها ، وذلك لسببين ، أولاً : أن فكرة الأنساب الموجودة ليست بفكرة بدوية ، بل هى مختلطة باليهودية ، وكثير منها موجود بالتوراة ، ودليل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا ^(٢) » . فيظهر من هنا أنه مر على العرب حين من الدهر لم يكن لهم فيه علم بالأنساب ، وبما لا ريب فيه أنهم استكثروا التسمية بالحيوان حتى فى عصر قبيل الإسلام ، فقد روى أنه لما هجر بنو طى من الجنوب إلى نجد والحجاز نزلوا عند قبيلة تسمى بنى أسد ^(٣) ، وثانياً : لا يهمنى فى بحثنا هذا دلالة هذه الأسماء على أشخاص تاريخية معينة ، فيكفينا أنها تطلق على مولود الانسان لسبب من الأسباب ، وكل ما يهمنى أن نعرف السبب فى تلك التسمية ، فقد اختلف المفسرون فى المقصود من تلك التسمية ، فقال بعضهم إنها ليست بأسماء ، بل ألقاب لوحظ فى أصحابها التشابه بينهم وبين الحيوان الذى سموا بأسمائه ، وقال صاحب لسان العرب : إنهم كانوا يسمون الأولاد باسم الحيوان ظناً منهم أنه يحفظهم من أعين الإنس والجن ،

(١) أنساب العرب القدماء (جورجى زيدان) .

(٢) ابن خلدون ١ المجلد الأول ص ١٠٩ .

(٣) صبح الأعشى ج ١ ص ٣٣٠ ومعجم البلدان « أجا » .

وهذا ما يسمونه بالنقير ؛ وقيل لأبي دقيش الأعرابي لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم أحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا ، وعبيدنا لأنفسنا^(١) ، كأنهم قصدوا بذلك التفاؤل ، فظهر من هنا أن هذه الأسماء لم تكن بألقاب ، بل كانت أسماء سميت بها العرب إما مشابهة وإما صيانة من خطفة الجن ، فإذا كان الغرض من التسمية المشابهة كما قيل فيكون الشبه بطريق القياس في الصفة أو في الصورة ، أما الشبه في الصفة فمعرفة متعذرة وقت الولادة ، وإذا كان الغرض من الشبه المشاكلة والمماثلة في الصورة ، فليست التسمية إلا جريا مع عقيدة العرب أن الابن يشبه أبويه أو أخواله ، وذلك بسبب الدم المشترك الذي يجري في شريانه ، كما قيل إن القافة كانت تعين لكل ولد والداً معتمدة في ذلك على ظواهر خارجية ، ويؤيده ما ورد في الخرافة التي تقول (في العرب قوم يقال لهم الضبعيون ، لو كان في قتل فيه ألف نفس وجاء الضبع لا يتصد أحداً سواه^(٢)) ، وإن كان العرب يريدون بتلك التسمية تفاؤلاً تارة واستعاذة تارة أخرى ، فهذا يدل على تقديس الحيوان ، وهو أيضاً من مرایا الطوتمية .

وإذا انتقلنا إلى القول الثاني في وجهة تسمية الحيوان نرى أن المستشرقين ذهبوا إلى أن تسمية بعض القبائل بأسماء الآلهة التي كانت تعبدها لم يكن بالأمر النادر عند العرب ، فكم من شخص بل كم من قبيلة عرفت باسم الإله الذي كانت تعبده ، مثال ذلك أن بني هلال وبدر وشمس ينتسبون — ولا شك — إلى تلك الآلهة التي كانوا يعبدونها قبل الإسلام . ومن هذا القبيل بنو غنم ونهم وكلها مأخوذة عن أسماء تلك الآلهة التي كانت تعبدها هذه القبائل ، فيستنتج من

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٣ .

(٢) حياة الحيوان المجلد الثاني ص ٦٥ .

هذا بطريق القياس أن الحيوانات التي تنسب إليها بعض قبائل العرب كانت في الأصل معبودة عندهم .

(٢) لكن القبيلة الطوتمية قبيل تقديس الطوتم تعتقد أن لها علاقة بأب حيواني ، فهل كان للعرب اعتقاد مثل هذا يا ترى ؟ كلا ، ما وجدنا خرافة صريحة تدل مباشرة على أنه من نسل الحيوان أو النبات ، ولكن سنبين الخرافة التي تدل على أن العربي كان يعتقد بعلاقة بينه وبين الحيوان كما قال الجاحظ : « قلت مرة لعبيد الكلابي وأظهر من حب الإبل والشغف بها ما دعاني إلى أن قلت له : أينها وبينكم قرابة ؟ قال : نعم خوولة ، إني والله ما أعنى البخاتي ولكني أعنى العرب التي هي أعرب . قلت له : مسخك الله تعالى بعيرا ، قال : الله لا يمسخ الإنسان على صورة كريم ، وإنما يمسخه على صورة لثيم »^(١) نعم إن مثل هذه الفكرة الشاذة لا تدل على عقيدة سائدة عند أهل البادية جميعاً ويؤكد ذلك قول المسعودي^(٢) « وقد زعم كثير من الناس أن الحيوان الناطق ثلاثة أجناس : ناس وبنناس وبنناس — وقالوا إن وجوههم على نصف وجوه الناس » . وعن عبد الله بن كثير بن عقير المصري عن ابنه يعقوب بن الحارث بن لحيم عن شيبه بن الحارث التيمي قال : « قدمت الشحر فزلت على رأسها فتذاكرنا النسانس فقلت : صيدوا لنا منها فلما رجعت إليه إذا بنسانس منها مع بعض أعوانه المهرة ، فقال لي النسانس : أنا بالله وبك ، فقلت لهم : خلوه فخلوه ، فلما حضر الغذاء قال : هل اصطدتم منها شيئاً ؟ قالوا : نعم ، ولكن خلاه ضيفك ، قال : استعدوا فإننا خارجون في قنصة أخرى ، فلما خرجنا إلى ذلك السرح خرج منها واحد يعدو ، له وجه كوجه الإنسان وشعرات في ذقنه ومثل السرة في صدره ، ومثل رجل الإنسان

(١) الحيوان للجاحظ المجلد الرابع ص ٥٣ — مطبعة المحيدية .

(٢) المسعودي المجلد الأول .

رجلاه ، (فهذا الوصف ينطبق على القرد تمام الانطباق) . وأغلب الظن أن هذه الفكرة بعد امتزاجها بفكرة البلاد المتجاورة ظهرت في شكل شق وسطيح ، فانتسب إليها من العرب بعض الأفراد والقبائل كما قال الألويسي^(١) : « كان الشق بن أنمار بن نزار هذا شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وكذلك كانوا يعتقدون في سطيح بأنه ابن مازن بن غسان وكان يدرج كما يدرج الثوب ولا عظم فيه إلا الجمجمة »^(٢) . ويقال إنه كان وجهه في صدره ولم يكن له رأس ولا عنق وكان في عصره من أشهر الكهان .

بل إذا التفتنا إلى تصور الجن عند العرب ، تظهر الفكرة الطوتمية بأجلى مظاهرها . فالجن في العقيدة الجاهلية خلق من بيضة كما قال السعودي^(٣) : « وما ذكره أهل التاريخ والمصنفون لكتب البدء كوهب بن منبه وابن إسحاق وغيرهما أن الله عز وجل خلق الجن من نار السموم ، وخلق منه زوجته ، كما خلق حواء من آدم ، وأن الجن غشيها فحملت منه ، وأنها باضت إحدى وثلاثين بيضة ، وأن بيضة تفلقت من تلك البيضة قطربة وهي أم القطارب وأن القطربة على صورة الهرة وأن الأبالس من بيضة أخرى منهم الحارث أبو مرة ، وأن مسكنهم الجزائر وأن الغيلان من بيضة أخرى مسكنهم الخرايات والقلوات ، وأن السعالي من بيضة أخرى وسكنوا الحمامات والزابل ، وأن الهوام من بيضة أخرى وسكنوا الهواء في صورة الحيات ذوات أجنحة يطيرون هنالك ، وأن الحماميص من بيضة أخرى »^(٤) . فهذه الرواية تدل صراحة على كون الجن من نسل الحيوان . فما الذي

(١) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٧٨ .

(٢) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٣٨١ .

(٣) صروج الذهب ص ٣٢٠ .

(٤) بلوغ الأرب .

يخلق من البيضة ولا يكون من الحيوان يا ترى؟ وكذلك زعم العرب « أنه ليس بهذه الأرض اليوم أحد إلا الجن ، والإبل الحوشية وهي عندهم الإبل التي ضربت فيها فحول إبل الجن فالحوشية من نسل إبل الجن^(١) » تشبه عقيدة الأمم الممجبة التي تقول إن الحيوانات كانت تملأ الأرض قبل وجود الإنسان^(٢) .

وزد على ذلك قول الألويسي : « إنهم يعتقدون في الديك والقراب والحمامة والورل وساق حر والقنفذ والأرنب والظبي واليربوع والنعام والحية اعتقادات عجيبة . فمنهم من يعتقد أن للجن بهذه الحيوانات تعلقاً ، ومنهم من يزعم أنها نوع من الجن^(٣) » . ولا يخفى أن هذه الحيوانات من أشهر أسماء القبائل والأفراد عند العرب كما ذكرنا سابقاً؛ ويؤيده ما ورد في خرافات أخرى لا تكاد تنحصر؛ فقيل إن السحابة إذا هي ظفرت بإنسان ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفار ، قال وربما اصطادها الذئب بالليل فأكلها^(٤) ، ويقال إن تأبط شرا رأى كبشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول طول الطريق عليه فلما قرب من الحى ثقل عليه فرمى به فاذا هو النول^(٥) . وكذلك مقاتلة علقمة بن صفوان بن أمية مع الشق قيل إنه ضرب كل منهما صاحبه فخرا ميتين^(٦) . وقد بينا بهيمية الشق في خرافة سابقة . وفي أسطورة حرب بن أمية — ومرداس بن أبي عامر الشخصيتان التاريخيتان أنهما أحرقا مغارة ناوين الزرع فيها فطارت الشياطين

(*) المسعودي ج ٣ ص ٣٩١ .

(١) وهكذا تكلم العرب في الجن أنهم كانوا في الأرض قبل خلق آدم والخلافة في الأرض

(سروج الذهب) .

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٦٠ .

(٣) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٤) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٥) سروج الذهب ص ٣٢٥ .

من تلك المغارة وما هي إلا الحيات البيضاء^(١) .
 ونستطيع أن نقول بعد هذا إن هيئة الجن في الروايات المذكورة تدل صراحة على كون الجن من الدواب والسباع والهوام . نعم أحياناً نجد الجن على صورة الإنسان ، وتارة على شكل غريب الخلق ، لكن التصورات من هذا السبيل لم تكن تصورات عربية خالصة ، وذلك لأن العقلية العربية كما بينا لم تجرد المادة في بداوتها ، لذلك كان تصور الجن كراكب النعام من أحدث التصورات كما قاله كوك^(٢) أيضاً . وأما القول بأن سليمان عليه السلام رأى الجن على أشكال خارقة للعادات^(٣) فقد يكون فكرة إسرائيلية كما يظهر من انتسابه إلى سليمان عليه السلام .

وخلاصة القول أن الجن والغول والسعلاة كانت من الحيوان في صميم الفكرة العربية . ولذلك نرى الباحثين عن معنى الجن عند العرب أدخلوه في نوع الحيوان متأثرين بفكرة البادية وقالوا : « إن الغول حيوان شاذ^(٤) » .

« وإذا نظرنا إلى أصل نشوء الجن عند العرب نشعر أن مساكن الجن تشبه مساكن السباع التي كانت العرب تخاف منها ، فكل شيء مخيف أو صوت غريب كان متعلقاً بالجن في بادية العرب . فهذه الفكرة إما أن تكون قد بدأت في بادية العرب نفسها ، وإما أن تكون قد جلبت من الخارج ؛ فإذا كانت مجلوبة^(٥) . فليس لنا أن نبحث فيها بل نتركها لفرصة أخرى . أما إذا كان منشؤها في البادية نفسها فأغلب الظن أن تكون بذور تلك الفكرة هي أن

(١) الأغاني ج ٦ ص ٣٤١ .

(٢) Notes on the Religion of the semites "Smith By Cook".

(٣) عجائب المخلوقات قزويني .

(٤) عجائب المخلوقات ٢٠٢ ..

(٥) وهو المحتمل .

العربي كان يخاف بعض الخرافات والفلوات ، ويستوحش من سماع الصدى فيما بين الجبال ، كما قيل : « إن الأعراب وأشباه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف بل يتعجبون من رد ذلك ^(١) . وكذلك كان العربي يخاف من السباع ويظن فيه روحا شريراً ويظهر هذا فيما يقال من أنه إذا نزل العربي في واد محيف كان يعود بعظيم هذا الوادي . قال شاعر استعاذ ومعه ولده فأكله الأسد :

قد استعدنا بعظيم الوادي من شر ما فيه من الأعداى

فلم يجرنا من هزبر عادى ^(٢)

ولم يكن عظيم الوادي هذا في بادية الأمر إلا صنفاً من السباع . وقد قيل خرجنا في سفرة ومعنا رجل فأنهينا إلى واد فدعونا بالغذاء فد الرجل يده إلى الطعام فلم يقدر عليه ، وهو قبل ذلك يأكل معنا في كل منزل ، فخرجنا نسأل عن حاله ، فلقينا رجلاً طويلاً أحول مضطرب الخلق في زى الأعراب ، فقال لنا : ما لكم؟ فأنكرنا سؤاله لنا ، فأخبرناه خبر الرجل ، فقال : ما اسم صاحبكم؟ فقلنا : أسد ، فقال : هذا واد قد أخذت سباعه فارحلوا ، لو قد جاوزتم الوادي استمر صاحبكم وأكل ^(٣) . ثم تطورت الفكرة إلى أن النفس التي كانت طيراً في تصور العربي القديم أصبحت جنا من الجن الخيالية وصارت من شياطين الشعراء فيما بعد . ومع أن فكرة الجن تطورت عند العرب إلى حد بعيد ، فقد بقي في تصور الجن جزء من الحيوانية ، فإذا تحولت السعلاة في صورة المرأة مثلاً فقد تكون رجلاًها رجلى حمار أو عنز أو على الأقل كما قال الشاعر :

يا رجل عنزا انهقى نهيقا لن تنزلى السبيل والطريقا ^(٤)

(١) كتاب الأصنام للكلي .

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٢٦ .

(٣) أغاني المجلد الثالث ص ٣٧ — طبعة دار الكتب المصرية .

(٤) صروج الذهب ص ٣١٥ .

وكان العربي يرى في الجن أوفى هذا الحيوان كل ما يراه المتوحش في طوته ؛ فكان ينسب الأفراد والقبائل إلى نسل الجن ، كما قيل كانت بلقيس ملكة سبأ وذو القرنين^(١) ملك الأرض من ولد الجن ، وكذلك كانت قبيلة بني مالك وبنو شيصيان وبنو يربوع من قبائل الجن . ومع كل هذه المماثلة بين الجن والحيوان وطوتم المتوحش فإننا نرى صفات الجن تختلف عن صفات الحيوان في بعض الأساطير القديمة ، كما قيل إن عمرو بن يربوع تزوج الغول وأولدها بنين ومكثت عنده دهرًا ، فكانت تقول له : إذا لاح البرق من جهة بلادى وهى جهة كذا فاستره عنى ، فإنى إن لم تستره عنى تركت ولدك عليك وطرت إلى بلاد قومى ؛ فكان عمرو بن يربوع كلما برق البرق غطى وجهها بردائه فلا تبصره^(٢) . فانظر إلى تصور الجن هنا مع كونه إنساناً ذا لحم وعظم ضخم يطير في الهواء ويسكن في ناحية يلوح فيها البرق . ولا إخال في هذه الأسطورة شبه تأثير خارجي ، لأن مضمونها يشير إلى قدمها وبداوتها .

ومع اعترافى بكون هذه الخرافة عربية أرى فيها تطوراً في تصور العربي . فلا أغالى إذا قلت إن تصور الجن لم يبق على حيوانيته القديمة في جميع تطوراته من عصر البداوة إلى عصر الإسلام . ولكن هذا لا يمنع من كون الجن حيواناً في تصور العربي القديم كما ذكرنا آنفاً . ولست أول من يقول بهذا ، بل سبقنى إلى هذا الاستنباط « اسمث »^(٣) الذى لا يشك في طوتمية الجن ، لكنى مع اعتقادى بكون الجن حيواناً في تصور العرب القدماء ، لا أواقفه على كون الجن طوتما عند العرب ، وذلك لأن الطوتم كان من أصحاب المتوحشين ، وكان للطوتم أتباع يحمونه ويحميهم ، أما الجن منذ نشأتها فهو شيء نحيف ومنفر

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٤٠ .

(٣) The Religion of the semites. (٣)

للناس ، وقد استعادت العرب من الجن ، ولم يرجوا الخير منه ، لا كما يفعل أهل الطوتم الذين كانوا يلجأون إليه في الساعة المخرجة . فكان الجن يمثل قوة الشر ، وكان أشجع شبان العرب ، مثل تأبط شرا وعلقمة بن صفوان يقاتلونه ، وكانوا يغنون نشيد الشجاعة إذا تغلبوا عليه ، ومن هذا تقول إن الجن كان من أعداء القبيلة لا من آباءها . فضلا عن ذلك فإن الجن كانت تمثل الحيوان في الخيلة العربية ، لكن العربي كان يفرق بين الجن والحيوان في عالم المشاهدة ، إذ لم يكن كل صنف من الحيوان جنا في تصوره ، وزد على ذلك أن السباع لم تكن وحدها من الجن ، بل كانت الإبل أيضاً من الجن ، ولو أنها ليست من الحيوانات الخيفة ، وكذلك نوعية الجن لم تكن محصورة في الحيوانية ، بل كل شيء مخيف أو صوت غريب أو بناء عظيم^(١) يستلفت الأنظار كان متعلقاً بالجن .

كل هذا يهدينا إلى أن الجن لم تكن طوتما عند العرب ، بل الحيوان المقدس تطور واختلط تقديسه بالجن التي عرفها العربي بعد اتصاله بالبلاد المجاورة . ويؤكد هذا ما قيل إن كلمة الجن ليست عربية ، بل أصلها (Aggen)^(٢) أي المجير أو الحافظ أو الحامي ، وقد وجدت الكلمة في بعلبك (Heliopolis) مع اسم الأسد (Lion - gennaios) فأصبحت هي كلمة الجن المعروفة عند العرب^(٣) .

وقصارى القول أن الجن لم تكن طوتما عند العرب ، وإنما الحيوان هو الذي قد تمتع بميزات مثل الميزات الطوتمية ، فكان العربي يلاحظ في تقديس الحيوان كل ما يراعيه أهل الطوتم بإزاء طوته .

(٣) صاحب الطوتم لا يؤذي طوته ولا يأكله إلا إذا عضه الجوع .

(١) انظر الإكليل .

(٢) Religion of Palestine. P. 220. Foot-note.

(٣) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٥٨ و ٣٥٩ .

إن العربي كان يجتنب قتل الحيوان ظناً منه أنه لو قتله لجوزى به كما قال الأوسى^(١) :

« إنهم كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن تأخذ بثأره ، فيأخذون روثه ويفنونها على رأسها ويقولون « روثه راث تائرك » . وإذا طالت علة الواحد منهم ظنوا به مسا من الجن . وإذا قتل حية أو يربوعاً أو قنفذا صنعوا جمالا من طين وجعلوا عليها جوالق وملاًؤها حنطة وشعيراً أو تمرّاً ، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة الغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك ، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال ، فإذا رأوا أنها بحالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيها ، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض ، وفرحوا وضربوا بالدف ، وإذا كان الشيء المقدس من النبات حرموا إحراق عيدانه كما ورد في قصة مرداس^(٢) . ولا يظن ظان أن العربي لم يحرم الأكل من أى حيوان مع أنه من أهم مقومات الطوتمية ، إذ الحقيقة أن العرب مع أنهم اضطروا بطبيعة البلاد أن لا يحرموا شيئاً من الأكل لكنهم قد حرموا أكل اللحم في بعض المواسم كما قال البلخي : « وكانت الحس (من قريش) لا يسمنون السمن ولا ياقطون الإقط ولا يأكلون اللحم أيام الموسم^(٣) » وفي بلاد قحط وفاقه كبلاد العرب لا يستطيع الإنسان أن يمنع عن الأكل ولو كان من المحرمات ، فليس يستغرب ما قيل من أن بنى حنيفة عبدوا إلهاً من حيس ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ، فقال بعضهم :

أكلت حنيفة ربها زمن التقم والمجاعة

(١) بلوغ الأرب .

(٢) أغاني ج ٦ ص ٣٤١ .

(٣) البدء والتاريخ للبلخي الجزء الرابع الفصل الثاني عشر ص ٣٢ .

لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعد^(١)
وزد على ذلك الوصيلة والسائبة التي كانت تسبب للأصنام فتعطى للسدنة
ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل ، وقيل ترك لأهنتهم :

(٤) يحرم اللمس والنظر إلى الطوتم كما يحرم التلفظ باسمه .

كان العرب يحرمون التلفظ باسم الطوتم ، ويظهر هذا في أنهم كانوا يكونون
عن النهوش أو اللدوغ بالسليم ، ويسمون النعام بالطلع والمجلم ، كما كانوا يلقبون
الأسد بأبي الحارث ، والثعلب بابن آوى ، والضبع^(٢) بأم عامر ، وصموا الغراب
بحاتم^(٣) ، لكن ليس لدينا أدلة بينة صريحة على ذلك الأمر .

(٥) إذا مات حيوان من نوع طوتم القبيلة احتفل أهلها بدفنه وحزنوا عليه
كان العربي يدفن الحيوان مثلما يدفن الإنسان ويحزن عليه حزنه على أخيه ،
يؤيد هذا ما روى من أن بني الحارث كانوا إذا وجدوا غزالاً ميتاً يغطونه
ويكفونونه ويدفنونه ، وكانت القبيلة تحزن عليه إلى ستة أيام^(٤) . وروى
السهيلى فى فضائل عمر بن عبد العزيز : « بينا عمر بن عبد العزيز يمشى فى أرض
فلاة فإذا حية ميتة فكفنها بفضلة من رداءه ودقنها » . وقال أيضاً : إنه كان فى
نمر من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يمشون فرغ لهم إعصار ، ثم جاء إعصار أعظم
منه ، ثم انتشع فإذا حية قتيل ، فعمد رجل منا إلى رداءه فشقه ، وكفن الحية
ببعضه ودقنها^(٥) . وقال كوك (Cook) : إن القول بأن الحية كانت من الجان

(١) البدء والتاريخ للبلخى الجزء الرابع الفصل الثانى عشر ص ٢٣ .

(٢) تبريزى شرح الحماسة ص ١٩٣ .

(٣) الحيوان للباحظ ج ٣ ص ١٣٦ .

(٤) Totemism & Exagomy. P. 15.

(٥) الروض الأنف المجلد الأول ص ١٣٦ — طبعة الجالية بمصر .

المسلمين هو تفسير حديث وضعه الرواة لإثبات وهم قديم .^(١)

(٦) الطومن يدافع عن قبيلته في ساحة القتال ، وينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه بعلامة مثل الطيرة .

كان الحيوان يحمى العرب كما كان الطومن يحمى أهله ، فقد قيل : « خرج عبيد بن الأبرص يريد الشام ، فلما كان ببعض الطريق عرض له شجاع يلهث عطشاً ، فعمد عبيد إلى رابية ونزل عن بعيره وسقى الشجاع حتى روى ، ثم مضى حتى أتى الشام وقضى حاجته وانصرف ، فإذا في بعض الليالي أضل بعيره ، ونكب عن الطريق ، وساء ظنه ، فرأى بعيراً فاستوى على ظهره ، فلم يلبث أن رأى^(٢) باب داره ، وكان على مسيرة عشرين مرحلة » . وحكى بعض الرواة أنه نزل واديا بغنمه ، فسلم ذئب شاة من غنمه ، فجاء الذئب بالشاة وتركها . ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، بل تذكر أسطورة متأخرة أن العربي رأى الإله « يغوث » يدافع عن قبيلته في ساحة القتال كما قال الشاعر :

وسار بنا يغوث إلى مراد فناجزناهم قبل الصباح^(٣)

كذلك نجد العربي يتفاهل بالطير وبنباح الكلاب على مجيء الضيوف ، ويتشائم من الثور الأعضب (وهو المكسور القرن) ومن الغراب كما قيل أشأم من غراب البين . ولم يكن القال والطيرة علامات مرجحة ، بل يرى كوك أن الحيوان المتفاهل به كان يعلم ما كان يشير إليه وقد قال قيس بن ذريح^(٤) .

ألا يا غراب البين ويمحك نبتى بملك في لبني وأنت خبير

(١) Religion of semites By smith P. 444 Foot-note.

(٢) عجائب المخلوقات القزويني ص ٣١٣ .

(٣) كتاب الأصنام .

(٤) الأغاني المجلد الثاني ص ٨٩ و ٩١ .

(٧) عبادة الطوتم .

تطورت الطوتمية عند بعض الأمم مثل المصريين القدماء إلى عبادة حيوان الطوتم ، وسرى هل عبد العرب الحيوان كعبادة المتوحش الطوتم .
 نقل الدميري^(١) عن الاستيعاب للحافظ أبي عمر بن عبد البر « أن العرب كانوا يأتون بالشاة البيضاء فيعبدونها ، فيجيء الذئب فيأخذها ، فيأخذون أخرى مكانها » . وذكر السهيلي في قدوم وفد طى على رسول الله (صلم) قال :
 خرج نفر من طى يريدون النبي (صلم) بالمدينة وفودا ومعهم زيد الخيل و...
 فعقلوا رواحهم بفناء المسجد ودخلوا ، فجلسوا قريباً من النبي (صلم) حيث يسمعون صوته ، فلما نظر النبي (صلم) إليهم قال : إني خير لكم من العري^(٢) ولاتها ، ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله ، وما حازت مناع (الجبل) من كل ضار غير تقاع . ومن أمثال ذلك ما كان من عمرو بن حبيب الموصوف بذى الكيود (أى كثير الكيد) ، فإنه أغار على بني بكر فأصاب سقبا كانوا يعبدونه من دون الله ، فأراد إغاظتهم فنحره وأكله^(٣) ، وفي ذلك يقول أحمد البدوي الشنجيطي عند ذكر محارب وأبو عقيله :

وانسب خبر يهم ذو الكيود آكل سقب بكر المعبود

ومن هذا القبيل ما قال ابن إسحاق : « وكان رثام بيتاً لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منه ، إذ كانوا على شركهم ، فقال الخبران للتبع : إنما هو شيطان يفتيهم بذلك فحل بيننا وبينه ، قال : فشأنكأ به ، فاستخرجنا منه فيما يزعم أهل اليمن كلباً أسود فذبناه ، ثم هدمنا ذلك البيت »^(٤) .

(١) حياة الحيوان للدميري المجلد الثاني ص ٣٥ .

(٢) الروض الأنت المجلد الثاني ص ٣٤٢ للسهيلي .

(٣) أديان العرب للجارم ص ١٢٤ .

(٤) سيرة ابن هشام في حديث غزوة تبع إلى يثرب ص ٢٨ .

ولم يقتصر الأمر على بيت الرثام ، بل وجدت بيوت كثيرة على أسماء الحيوان في شبه الجزيرة ، من ذلك ^(١) دارة الذئب بنجد في ديار بني كلاب ، ودارة الذئب لبني الأضببط ، ودارة الغزيريل ^(٢) لبني حارث بن ربيعة بن أبي بكر ابن كلاب ، ودارة الكبشات للضباب ، وبني جعفر ، وكذلك دارة الجدى ، ودارة الخنزير ، ودارة المعجلة ^(٣) ، قيل هي أول دار بنتها قريش بمكة قبل دار الندوة .

هذه الروايات تهيئنا إلى أن العربي عبد الحيوان الحى نفسه ، ولم ينحت الأصنام على صورة الحيوان لأنه كان جاهلاً بصناعة الرسم والنحت . نعم لقد وجدت الأصنام على صورة الحيوان في شبه الجزيرة ، ولكن معظمها بل كلها كان مجلوباً من البلاد المجاورة . والأصنام التي وجدت على صورة الحيوان ثلاثة :

- (١) النسر وكان على صورة النسر ^(٤) فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع ، تعبده حمير ومن والاهما ، فلم يزالوا يعبدونه حتى هوّدهم ذونواس ^(٥) .
 - (٢) ويفوث وكان على هيئة الأسد ^(٦) ، وكان بأكمة في اليمن يقال لها مذحج ، تعبده مذحج ومن والاهما ^(٧) .
 - (٣) ويعوق وكان على صورة الفرس ^(٨) ، فكان بقرية يقال لها خيوان تعبده همدان ومن والاهما من أرض اليمن ^(٩) .
- أما الكلابي فلم يذكر هيئة هذه الأصنام ، بل قال : « كان ودّ وسواع

(١) معجم البلدان المجلد الرابع ص ١٨ .
 (٢) معجم البلدان المجلد الرابع ص ١٠ .
 (٣) معجم البلدان المجلد الرابع ص ١٠ .
 (٤) Kinship & Marriage .
 (٥) كتاب الأصنام ص ٥٨ .
 (٦) Kinship & Marriage .
 (٧) كتاب الأصنام ص ٥٧ .
 (٨) كتاب الأصنام ص ٥٧ .
 (٩) Kinship & Marriage

ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين^(١) . واكتفى بقوله في «سواع» : ولم أسمع
لهذيل في أشعارها له ذكرا^(٢) . وقال في «يعوق» : ولم أسمع همدان سميت به
ولا غيرها من العرب^(٣) . وقال في «نسر» : ولم أسمع حمير سميت به أحدا^(٤) .
فظهر من هذه الرواية أن الأصنام هذه لم تعبد في الحجاز ونجد ، فلا غرو إذا
لم يجد الكلبى أثرهم في أسماء العرب ولا في أشعارهم .

أما جورجى زيدان فقال : إن « يغوث » مجلوب من مصر ، وعلل ذلك
بقوله : وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنما على صورة أسد أولبوة يسمونه
« تغنوت » ، ولا يخفى ما بين هذا اللفظ واللفظ « يغوث » من المشاكاة الصورية
إذ اعتبرنا أن العرب كانوا يكتبون بلا نقط^(٥) ، فكان الصنم « يغوث » مجلوباً
من الخارج ، وعبده العرب ، كما يظهر من أسماء مثل عبد الأسد ، وعبد يغوث
ونحو ذلك . فانتشرت عبادة الإله الأسد في نجران وفي شمال اليمن ، ودانت
قبيلة مذحج وبطنها وأغذاها بدين الإله الأسد في مدينة جرش ، على وادى
بيشه في شمال اليمن ، ويؤيده ما ورد في قصة حرب الرزم التي نشبت بين همدان
ومراد للحصول على ذلك الصنم . وخلاصة القول أن « يغوث » لم يكن مجلوباً
فحسب ، بل لم يعبد في الحجاز ونجد ، وهما البلدان اللذان حصرنا بحثنا فيهما .
زد على ذلك أن « يعبوب » صنم لجديلة طى ، وكان لهم صنم أخذته منهم
بنو أسد فعبدوا « يعبوب » بعده . وزاد زكى باشا على ذلك قوله : ربما كان هذا
الصنم على هيئة الفرس^(٦) . وذكر « سمث » صنما حيوانيا جديدا عند العرب
وهو اليربوع فقال وهو يستنبط من قصة التوراة التي تقول بتقهقر سنحاريب ،

(١) كتاب الأصنام ص ٥١ .

(٢) ص ١ (٣) ص ١٠

(٤) ص ١١ .

(٦) كتاب الأصنام ص ١٣ .

(٥) أنساب العرب القدماء .

ومن الأساطير التي تقول إن الفأر أهلك عساكر السوريين .
 أغلب الظن أن عبادة « أبولو » (Appolo) من حيث هو الذي يبعث
 الوباء (Scminthens) تدل على أنها سامية الأصل^(١) ، ولكن الأصنام
 الحيوانية مثل يعوق ونسر ونحوهما لم تترك أثراً في حياة العرب البادية . وقصارى
 القول أن العربي رأى في الحيوان كل ما اعتقد المتوحشون في طوتهم ، إلا أن
 صاحب الطوتم يقدس طوته المخصوص ويتجنب أذى الطوتم الذي ينتسب
 إليه ، أما العرب فلا تعرف حيواناً مخصوصاً لقبيلة ما بعينها ، حتى تقول إن قبيلة
 الذئب مثلاً كانت تحترم الذئب ، أو قبيلة النمر كانت تجتنب قتل النمر ، وكذلك
 لم تكن الجن طوتما ولا أبا لقبيلة العرب ، لأن العربي لم يثمن الخير من الجن ، بل
 خاف منها وذهب بعيداً عنها .

كانت العرب تقدس الحيوان وتعبده كما يقده ويعبده أهل الطوتم ،
 لكن غرضهم في تقديس الحيوان وعبادته يختلف عما يقصد أهل الطوتم ، إذ كان
 أهل الطوتم يرمون بعبادة الحيوان إلى إجلال الآباء وإكرامهم ، فكانوا مدينين
 للطوتم بحياتهم ومماتهم ، لكن العرب لم تعتقد أن حياتها هبة من هبات إله
 حيواني ، ولا رأوا صلة رحم بينهم وبين الحيوان الطوتمي كما هي عقيدة المتوحشين ،
 بل كان العربي يقدس الحيوان ويعبده لتحصل له البركة ، وشكراً لاستفادته منه
 على مجرى عادة الرعاة جميعاً ، أما الأصنام مثل « يعوق » ، و « يعوق » ،
 و « نسر » ، و « يعبوب » ، و « يربوع » ؛ فقد بينا أنها لم تعبد في بادية الحجاز
 بل ما وجد أثر لها في حياة العرب الاجتماعية ، إن هي إلا أسماء سموها :

فهذا البحث يهدينا إلى أن العرب لم تتمتع بجميع الميزات الطوتمية ،
 ومما لا نستطيع جحوده أنه اعتقد في الحيوان عقيدة تشبه الطوتمية ، فإذا كان

(١) Kinship & Marriage — Foot note 236.

لا مناص من مرور التفكير البشرى بتطورات مثل الحيوى والطوتمي كما قرره العلماء ، فلا يبعد أن تكون هذه الطوتمية عند العرب مثل الطوتمية التي وجدت عند قبيلة أرنتا (Arunta) في وسط أستراليا . وهي عبارة عن تقديس الحيوان . وعبادته دون أن تكون وراثية ومبنية على الزواج الخارجى والأمومة ؛ أو بعبارة أخرى إن الطوتمية من الوجهة الاجتماعية لم توجد عند العرب القدماء ، ومما لا تردده فيه أن الطوتمية من وجهتها الدينية كانت منتشرة فى القبائل العربية . ولا يظن ظان أن الطوتمية الدينية والاجتماعية متلازمتان ، ذلك لأنها منذ نشأتها كانت — على رأى فريزر — دينية بحتة ، ثم تفرعت . وقد وجدت بعض القبائل الطوتمية وليس لها حظ من الوجهة الاجتماعية كقبيلة أرنتا .

الباب الرابع

آلهة العرب

الفصل الأول

نظرية بدء الوثنية في الرواية والدراية

عقلية الأمة تنضج وتبلغ رشدها من التجارب التي تكسبها في تنازع البقاء ،
 فقد رأينا أن التفكير يتدرج من المذهب الحيوي إلى المذهب الطوتمي ،
 أما المذهب الفيتشي والمذهب الطوتمي فإما إلى مذهب واحد في هئتين مختلفتين ،
 وإذا أمعنا النظر فيهما رأينا أنهما في الحقيقة فرعا للمذهب الحيوي ، وذلك لأن
 الإنسان الأول في المذهب الحيوي يتوهم حياة في كل شيء ، وفي المذهب الطوتمي
 يمحصر الحياة في أشياء محدودة ، فلذلك تنقسم العقيدة الدينية إلى مذهبين :
 الأول هو المذهب الحيوي ، والثاني هو مذهب تعدد الآلهة (Polytheism)
 ويختلف الأول عن الثاني بأنه يرى في الجمادات والحيوانات شخصية خاصة بها ،
 لكن الثاني يمثل الطبيعة في صورة الإنسان . أما ما يتعلق بتوزيع قوى الطبيعة
 بين الآلهة ، وبإقامة الدولة الإلهية مثل دولة زيوس في أولمبس عند اليونان فهو
 أرفع شأنًا وأعلى منزلة في تطور تعدد الآلهة ، وهو لا يحصل إلا بعد تقدم الحضارة
 تقدما عظيمًا . ولا تنتقل المعيشة من حالة القنص والرحلة إلى حالة الزراعة والإقامة
 إلا بالتدريج ، لذلك فإن الآلهة التي كانت لها سلطة في حالة البداوة لا تقنى في

دور الانتقال فناء تاما ، بل أكثرها يستمر إلى أن يبلغ مذهب تعدد الآلهة قمة مجده .

قلنا إن عقلية الإنسان لم تفرق بينه وبين الموجودات في طور المذهب الحيوى ، أما في حالة المذهب الطوتى فإن عقليته تقدمت وقرقت بين الجماد والحيوان ، ثم ارتقت فكرته بعد ذلك وفهم أنه يمتاز بالنطق وجوهر العقل ، وأنه يستطيع أن يعمل ما لا يستطيع الحيوان عمله ، فلما عرف شرفه بهذا وفضيلته على غيره ، رد الآلهة الطوتية إلى أشكالها الحقيقية وأقام الأصنام على خلقته ، ولو أنه أبقى في هذه الأصنام جزءاً من الحيوانية السابقة ، ليكون رمزا يدل على أنه حيوان في الحقيقة . ولكن أعظم الأصنام في هذا الطور اتخذت شكل الإنسان وصورته ؛ وما أحسن ما قال الفيلسوف اكرينوفان (Exenophan) ساخرا^(١) « يتخيل الإنسان أن الإله يولد مثل الإنسان وله هيئة وصوت وجسد مثله وكذلك لو استطاع الثور والأسد والحصان أن تنحت الآلهة لرسمتها على شاكلتها ولجعلت أجسادها مثل أجسادها » ، لكن المسئلة التي تختلج في صدر الباحث لا تتعلق بصورة الصنم بل بغاية الإنسان من إقامة الصنم ، والداعى الذى حمله على عبادة الأوثان في مبدأ الأمر ، قال يوهيمروس (Euhemerus) : كانت الآلهة من أبناء آدم ، لكن مرور الزمان والأجيال كبر همهم ورفع شأنهم إلى درجة الآلهة ، وهذا ما ذهب إليه سيفج (Savage)^(٢) حيث قال : إن أول مظهر الدين « عبادة القبيلة الرب والأمير » Ancestor worship is The root of every religion . وهكذا قال سبنسر : « إن عبادة السلف أساس الأديان جميعاً » . وهذه هي العقيدة التي

B. 40. Introduction to Mythology by "Lwis spense". (١)

B. 15 Belief in God. (٢)

نجدها سائدة في الأمة العربية كما قيل : « كان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة فيعظمونه ويترحمون عليه ، فقال رجل من بني قاييل بن آدم : يا بني قاييل إن لبني شيث دوارا يدورون حوله ويعظمونه ، وليس لكم شيء ، فنحت لهم صنما فكان أول من عملها^(١) . وكذلك يقال كان ود وسواع وينوث ويعوق ونسر قوما صالحين ماتوا في شهر ، فجزع عليهم أقطربهم ، فقال رجل من بني قاييل : يا قوم ، هل لكم أن تعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ، غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً ؟ قالوا نعم ؛ فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ولقبها لهم ، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسمى حوله ، حتى ذهب القرن الأول وعملت على عهد بروي بن مهلابيل بن قيشان بن أنوش بن شيث ابن آدم ؛ ثم جاء قرن آخر فعظموم أشد من تعظيم القرن الأول ، ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله^(٢) فعبدوم . وقيل أيضاً غنم سليمان عليه السلام بنتاً ملك وكان لا يذهب حزنها ولا تزال تبكي ، فأمر سليمان الشياطين إجابة لطلبها أن يصوروا صورة أيها لتسليتها ، فعملوا لها مثل صورته ، وألبسوها ثياباً مثل ثياب أيها ، فكانت إذا خرج سليمان من دارها تسجد لها^(٣) .

ولكن هذه النظرية لا تتفق مع عقلية العرب وتقاليدهم ، لأن العرب لم يرفضوا سدنة البيت إلى درجة الآلهة ، ولم يقدسوا آباءهم وأمهاتهم — هاك سدنة البيت على رواية ابن هشام لما توفي إسماعيل بن إبراهيم ولي البيت بعده^(٤) .

١ — ثابت بن إسماعيل . ٢ — مضاخ بن عمرو الجرهمي :

(١) كتاب الأصنام ص ٥١ . (٢) كتاب الأصنام ص ٥٢ .

(٣) تاريخ ابن الأثير المجلد الأول ص ٩٢ .

(٤) سيرة ابن هشام في ذكر ولاية الكعبة .

- ٣ — عمرو بن حارث الغساني . ٤ — حليل بن حبشه .
 ٥ — غوث بن مر بن أد . ٦ — قصي بن كلاب .
 ٧ — عبد الدار . ٨ — هاشم بن عبد مناف .
 ٩ — المطلب بن عبد مناف . ١٠ — عبد المطلب بن هاشم .
 ١١ — عباس بن عبد المطلب .

ولم يعبد سادن من هذه السدنة ولا من سدنة أصنام أخرى مثل بنى لحيان (سدنة سواع)، وبنى ثقيف (سدنة اللات)، وبنى شيبان (سدنة العزى^(١)). نعم قد عظمت الأممات و قدست في بلاد متعددة، ولكن لم يكن الإله من جنس الإنسان دائماً، ولا كل ميت تقديس وتحويل إلى صورة الإله، وإذا كان الأمر غير ذلك فكيف تعتبر عبادة بنى إسرائيل للعجل، وعبادة العرب للجمل والكلب الأسود والشاة الحية والجن؟ ليست هذه العبادة إلا وليدة الاستفادة واللذة والخوف، ولذلك ذهب الناس في تعليل إقامة الأصنام مذاهب شتى؛ وقالوا إن هناك علاقة بين آلهة الرعد والبرق والأحجار القداحة لما يزعمونه من أصلها السماوي، وإن كانت أحجاراً بركانية أو ما يشبهها. والواقع أنه كان للنار أثر كبير في الحياة الاجتماعية عند المتوحشين جميعاً، وكذلك كانت عند العرب، ومن نيرانهم نار التحالف، ونار القرى، ونار المزدلفة، ونار الاستسقاء، ونار الزائر، ونار القدر، ونار السلامة، ونار الحرب، ونار الصيد، ونار الأسد، ونار السليم، ونار القداء، ونار الوشم. ولقد كانوا يقولون للرجل ما تارك؟^(٢) وكان العربي يستغرب من وجود النار في الشجر، ولذلك تقول العرب: «في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار»، لأنهما أسرع اقتداحاً، فقال سبحانه وتعالى ينبهم على ما كانوا يعنون به: «أفأنتم النار التي تورون أأنتم

(١) كتاب الأصنام . (٢) نهاية الأرب لفتوى .

أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » . ولم يقتصر الأمر على ذلك الحد بل نسجوا أسطورة حول النار وقالوا^(١) : « لما قتل قابيل أخاه هاويل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن جاءه إبليس وقال له : إنما قبل قربان هاويل وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها ، فانصب أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعقبك ، فبني بيت نار » .

وعبادتهم النار أن يحفروا أخدوداً مربعاً في الأرض ويمشوها ويملؤها وقوداً ثم لا يدعون طعاماً ولا شراباً ولا ثوباً ولا عطرأً ولا جوهراً إلا طرحوه فيها تقرباً إليها ، وحرموا إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها^(٢) .

وإذا كان العربي يرى ناراً في الأشجار الخضراء ، وفي بطون الأحجار والجبال ، فليس ببعيد أن يعتبر النار شيئاً قدسياً ، وطبيعي أن يرى في الحجر شيئاً من السحر حينما يرى النار تحرق الأشياء إلا الحجر ، وطبيعي كذلك أن يفضل الحجر على النار ويعظمه ويقدهه .

لكن النار وحدها لم تكن هي الضرورة الوحيدة في المعيشة ، وقد قلنا إن الإنسان بدأ حياته من تجارب بسيطة على قدر ضروريات محدودة ، وهذه الضروريات تنحصر باديء الأمر في البحث عن قوت يمسك رمقه ، ثم تتسع وتكثر . وأهم احتياجات المعيشة البسيطة والبدائية أكل بسيط وشرب ومسكن يقيه البرد القارس وحرارة الشمس المحرقة . وغريزة الإنسان تميل إلى قضاء تلك الحاجيات وهي بدورها تحمل الإنسان على عبادة الشيء الذي استفاد منه كما قال بروديكيوس Prodicus^(٣) ، في أول الأمر ظهرت أصنام القوى الطبيعية

(١) تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ج ١ ص ٨٢ .

(٢) نهاية الأرب ص ١٠٥ .

(٣) Introduction to Mythology p. 42

التي استفاد منها الإنسان مثل النيل في مصر ، ثم أقيمت تماثيل للناس الذين خدموا الإنسان . وقصارى القول إنما نشأ الإنسان الأول يعبد الشمس والقمر والنجوم والمطر والنور وغيرها من آلهة الخير ، والرعد والبرق والنار والظلام وغيرها من آلهة الشر ، وقدم القرابين والذبايح استدرارا لخير الأولى واتقاء لغضب الثانية ، فكان الدين على هذا الرأى وليد اللذة كما كان وليد الألم والخوف (child of fear) ، لذلك كان ينبغى للعربي الذي يراقب الطبيعة ويرحل في انتجاع أودية خصبة أن يكرم الآبار ، ويجل الرطب واللبن والعسل ، ويعبد الأشياء التي كانت مصدر هذه النعم كلها ؛ لكن المؤرخين لم يذكروا شيئاً من هذا القبيل في كلامهم عن المذاهب الجاهلية ، بل اختلف الرواة في بدء الوثنية عند العرب ، ولم يبق قول يتفق عليه حتى ثق به ، فقد قال البعض إنها بدأت بعد وفاة آدم عليه السلام كما ذكرنا سابقاً ، وذهب البعض إلى أن أبابكة نشر عبادة النجوم عند العرب ، وأجمع كثير من الرواة على أن عمرو بن لحي نصب الأصنام حول الكعبة ؛ وإذا رجعنا إلى ما ورد في التنزيل نرى أن الأصنام قد عبت في عصر نوح أيضاً ، وهذا العصر أقدم من عصر عمرو بن لحي ، فهذه الروايات العربية يبدو أنها تناقض بعضها بعضاً ، ولكنه يتجلى لنا أن الاختلاف في بدء الوثنية ليس تناقضاً ، وإنما هو إلى النوعية التي استمرت فيها الوثنية في عصور شتى . وهذه العصور تبدأ وفق روايات العرب من وفاة آدم ، حينما أخذ بنو شيث يعبدون أباهم آدم ؛ واستمرت هذه العبادة إلى عصر يزد بن مهدييل ، كما قيل إنه في عصره عملت الأصنام : ود ، وسواع ، ويفوث ، ويعوق ، ونسر ؛ وبعث إدريس إليهم للهداية فدعاهم إلى التوحيد ، لكنهم لم يستجيبوا له ، فرفعه الله إليه ، واستمر القوم في عبادة الأصنام إلى عصر نوح ، فتلاشت الأمة في الطوفان ، ثم انتشر النسل من أولاد سام في بلاد

العرب ، ومنهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرم والعماقة ، ويقال لهذه القبائل « القبائل البائدة » لما أصابها من العذاب السارى الذى أهلكهم ، إلا من آمن منهم ، وما آمن إلا قليل ، وقد كانوا أصحاب أوثان ، وكان من أصنامهم صمود وصداء والحصباء^(١) ، على رواية المسعودى ، فعبدوها من دون الله ، ونسوا ما أنعم الله به عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وبوأم أرضاً تدر عليهم الخير ، فبعث الله إليهم هوداً ، فدعاهم إلى عبادة الله ، فأبوا وكذبوا و « قالوا يا هود^(٢) ما جئنا بينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين » ، فأمسك الله عنهم المطر حتى جهدوا ثم أرسل عليهم الريح العقيم واستمرت متواصلة سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فهلكت عاد بكفرهم وطفغيانهم ، ثم خلف من بعدهم ثمود وكانوا خاضعين لعاد وهى فى أوج عظمتها ، فلما أبيت عاد ظهرت ثمود وكانت مثل عاد تدين بالوثنية ، فأرسل الله إليهم صالحاً واعظاً مذكراً ، ودعاهم إلى عبادة الله ، فأمن له المستضعفون من قومه ، وكفر الملا منهم ولم يؤمنوا له ، وطلبوا آية على صدقه ، فأتاهم بالناقة ، وقال لهم لا تمسوها بسوء ، فتركوها مدة قليلة ثم عقروها ، فأندرهم صالح بالعذاب بعد ثلاثة أيام ، فتآمروا على قتله ، فأهلكهم الله بالصيحة والرجفة ، أما صالح والذين آمنوا معه فقد نجوا مما حاق بقومهم من العذاب ؛ هذا ما نستطيع أن نفهم من الروايات العربية ، فلنرجع إلى ما ورد فى التنزيل : « كان الناس^(٣) أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم » ، ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كانت عليه عقيدة الشعب فى وجود الله ، فقال :

(١) المسعودى ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٢) سورة « هود » الآية ٥٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٣ .

« ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا إن أتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين »^(١) . فظاهر من هذه الآية أنهم كانوا يشكون في وجود الله في أول نشأتهم ، وكذلك في عصر نوح قال الله تعالى : « قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبيرا ، وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يعوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا »^(٢) ؛ وقد حكى الله عقيدة الشعب أيضاً على لسان نبيه هود عليه السلام ، فقال : « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون »^(٣) . « قالوا أجبنا لنعبد الله وحده وننذر ما كان يعبد آباؤنا »^(٤) ؛ فالثابت من هذه الآية أن قوم هود لم يكونوا يعرفون التوحيد ، فلما دعوا إليه لم يقبلوه ، وكذلك كان شأن قوم صالح ، كما قال سبحانه وتعالى : « وإلى ثمود صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتهيننا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنا لنفى شك مما تدعوننا إليه مريب »^(٥) .

ثم أتى إبراهيم عليه السلام فجادل أباه « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ

(١) سورة إبراهيم الآية ٩ .

(٢) نوح الآية ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ وانظر التوراة والتلمود في قصة الطوفان .

(٣) الأعراف الآية ٦٥ . (٤) سورة الأعراف الآية ٧٠ .

(٥) هود الآية ٦١ ، ٦٢ .

أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين^(١) » وكذلك « إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً^(٢) ». فقال له أبوه : « أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرني ملياً^(٣) قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياء ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله^(٤) » وأتى بإسماعيل في واد غير ذي زرع .

تدل الآيات السالفة على أن الوثنية استمرت من عصر إلى عصر ، وتطورت من نوع إلى نوع ، فكان كل نوع من الوثنية في كل فترة يختلف عن سواه ، وكما بعد الشعب عن عصر النبي زادوا في الكفر والطغيان والمعصية كما قال الله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ، فحلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً^(٥) .

تهدينا الآيات السالفة إلى أن الناس كانوا أمة واحدة سواء كانت الأمة واحدة على الحق أو على الباطل^(٦) ، وسواء أبدأت تلك الأمة حياتها من الحضارة أو من البداوة ، وذلك كما قال « سبنسر » ، وأغاب الظن كما اعتقد أن تهقر المدنية لم يكن أقل من تطورها^(٧) ، فبناء على ذلك تكون البداوة درجة الصعود في تطور الحياة كما تكون درجة النزول في تهقر الحضارة . فالبداوة سواء أكانت درجة التطور أو التهقر هي نقطة مبدأ حياة الإنسان ؛ فاختلاف الناس في هذا

(١) سورة الأنعام الآية ٧٤ ، وانظر Talmud Chap 11, 111 by. Polauo

(٢) مريم ٤٢ . (٣) سورة مريم الآية ٤٦ .

(٤) مريم ٤٧ ، ٤٨ . (٥) سورة مريم الآية ٥٨ ، ٥٩ .

(٦) تفسير نجر الدين الرازي .

(٧) Principles of sociology by Prencer P 93

الموقف ، وبدأوا يشكون في فاطر السموات والأرض ، وأتى عصر نوح فاستكبروا وعبدوا أصنامهم من دون الله ولم يكن الله عندهم فيما فهموا إلا إلهاً من الآلهة كما يؤخذ من قوله تعالى : « أجتنا لعبد الله وحده » وهكذا كانت عقيدة قوم صالح وهود . وكذلك كانت أمة إبراهيم تشرك بالله كما قال إبراهيم : « يا قوم إني بريء مما تشركون »^(١) ؛ فهذا يهدينا إلى أن الوثنية العربية في عصر الأنبياء بدأت بالشك في فاطر السموات والأرض ، وأصبح الله صنماً كالأصنام الأخرى عند عاد وثمود ، ثم استقرت الأمة على الشرك في عصر إبراهيم ، ودعاهم هذا الشرك إلى إنكار الخالق ، ثم إلى عبادة الأصنام تقرباً إلى الله زلفى ، كما حكى عنهم سبحانه وتعالى : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » . وخلاصة القول أن الوثنية مرت من التعظيم إلى الشك ، ومن الشك إلى الشرك بالله ، ولم تنقطع الوثنية في الفترات المتقطعة عند العرب ، بل كلما تركهم الله على الأرض أضلوا عباده ولم يلدوا إلا فاجراً كفاراً ؛ وهكذا كان شأن الإنسان دائماً كما قال الله تعالى : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشرك كان يؤوساً »^(٢) ، وكذلك قال سبحانه وتعالى : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً »^(٣) .

وقصارى القول أنه قدس بنو إسماعيل بناء الكعبة لاعتقادهم ما قال الله : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً »^(٤) . ثم أتى بعدهم جيل آخر ففسدوا غرض الأسلاف في الطواف حول الكعبة ، واحترموا الكعبة لأغراض اقتصادية واجتماعية غير

(١) سورة الأنعام الآية ٧٨ . (٢) سورة الإسراء الآية ٨٣ .
 (٣) « الإسراء الآية ٦٧ » (٤) « آل عمران الآية ٩٦ » .

دينية ، ودعتهم هذه الأغراض لآخاذ المروءة سبيلا لتنظيم حياتهم الاجتماعية ، ولم تبلغ المروءة هذه الدرجة العالية كما تراها في الأمة العربية إلا بعد تطور تدريجي ولكن معالم هذا العصر مجهولة . ولا يذكر القرآن ولا التاريخ المدون الحالة الدينية في ذلك العصر ، لأن أقدم حادثة تاريخية لها أثرها ويمكن الرجوع إليها هي حادثة انهيار سد مأرب منذ القرن الثاني المسيحي^(١) تقريبا ؛ أما ما يتعلق بالقرون السابقة لتلك الحادثة فلا نعرف عنها إلا نورا يسيرا من روايات غير محققة عند المؤرخين ، ومن أمثالها ما يذكر أن كرون أنه حينما كانت سلطة اليمانيين تنتشر في أنحاء جنوب شبه الجزيرة كان العدنانيون في ذلك الوقت يحتشدون في بادية الحجاز ونجد ، ولكن هجرتهم كانت من ناحية الشمال^(٢) بخلاف القحطانيين الذين دخلوا شبه الجزيرة من الجنوب^(٣) . ومهما كان قرب هذه الرواية من الصحة فإن التاريخ لم يحدد العصر الذي دخلت فيه تلك القبائل شبه الجزيرة . ومما لا نشك فيه أنهم ظهروا في هذه البقعة منذ عهد قديم . وكثير من المستشرقين يعترف أن منشأ الساميين المتحضرين هو بادية العرب لا غير^(٤) . ولكن لا نستطيع أن نذكر شيئا تاريخيا عن هذه القبائل التي أصبحت أسطورة من الأساطير عند العلماء ، وكل ما نعرفه عن طريق رواة العرب وعن المؤرخين المعاصرين^(٥) غير العرب ، أنهم كانوا أمة همجية ، وكانوا أهل خيام لا يستقرون في مكان ، معاشهم من كسب إبل يرتادون بها المراعى والمياه ، ولم يبنوا بيوتا ؛ ولم ينشئوا مدنا بخلاف أهل اليمن ، الذين كانوا هم تابعين لهم ، وفي القرن الخامس

(١) Historian history of the World

(٢) P. 106 Vol VIII

(٣) Liter. History P. 106 Vol. VIII

(٤) Historian's History P. 3 مقالة نولدك .

(٥) تاريخ هيروودوت .

المسيحي ظهر فيهم كليب وهو رجل من قبيلة ربيعة — وهي قبيلة تنسب إلى نزار بن عدنان — فخلص قومه من نير سلطة القحطانيين ، وأراد إقامة دولة عربية ، لكنه مات قبل تنفيذ رغبته ، وبقيت العرب على بداوتها حتى ظهر فهر بن قريش في القرن السادس . فلا يبعد إذاً أن يكون هذا العصر الذي يمتد من القرن الثاني المسيحي صاعداً إلى القرون الماضية قبل المسيح هو عصر بدء الحياة العربية الطبيعية ، وهو العصر الذي نشأت الوثنية فيه من عبادة الطبيعة ، وعبادة السلف .

الفصل الثامن

الوثنية المحلية في البلاد العربية

ظهرت العرب في البادية تحيط بها الطبيعة من كل جانب وقد تعرضت حياتهم لتجارب شديدة كان سببها الصعوبة في تحصيل مرافق المعيشة . فكان العربي يبحث عن قضاء الضروريات التي لا مناص منها ، فكان يجرب الأشياء ، ويميز اللذة من الألم ، والخير من الشر ، وكان تفكيره يتطور مع تطور تجاربه في الحياة . وفي هذا الطور يتصل تاريخ الوثنية العربية بالنظريات العقلية العامة ، كما يجوز أن تكون هذه الفترة أيضاً هي نقطة اتصال التاريخ بالنظريات العقلية التي بينها في الفصول السابقة وسميناها بالمشهد الحيوي والمذهب الطومى . والواقع أن العدنانيين قد أخذوا يستكثرون التسمية بأسماء الحيوان كما يقال : « ومن ^(١) ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة ومكاب بن ربيعة ومكلبة بنور ربيعة وفيهم من السباع أسد وضبعة وذئب وذؤيب » وقد بينا أسباب التسمية بأسماء الحيوان عند العرب .

وأهم رواية عربية تدل على وثنتهم ما قاله الأزرقى ^(٢) : « أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل أنه كان لا يظن من مكة ظاعن منهم إلا احتل معه من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم ، وصباية بمكة والكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا

(١) الحيوان للباحظ ص ١٥١ . (٢) أخبار مكة ص ٦٦ .

(الوثنية) بدين إبراهيم وإسماعيل ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات ، وهكذا روى الكلبي . وروى الألويسي^(١) : وكنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بغم فخلبناها عليه ، ثم طفنا به ، وقال أيضاً : « كنا نعد إلى الرمل فنجمعه ونحلب عليه فنعبده وكنا نعد إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نلقيه » . وروى عن أبي عثمان الهندي^(٢) : « كنا في الجاهلية نعبد حجراً فسمعنا منادياً ينادى : يا أهل الرجال ! إن ربكم قد هلك فالتمسوا رباً ، قال : فخرجنا على كل صعب وذلول ، فبينما نحن كذلك نطلبه إذا نحن بمناد ينادى : « إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه » وإذا حجر ، فنحرننا عليه الجزور » . فظهرت من هذه الروايات أن العرب لم يعبدوا كل صنف من الحجر ، بل ما استحسنوا من الحجارة وما أعجبهم منها ، ومعظم تلك الحجارة المختارة كانت بيضاء اللون وكانت لها علاقة بالغم والجمل ولبنهما . وقد بينا من قبل أن العقلية العربية لم تتطور من خيال تصويري إلى خيال اختراعي في العصر الجاهلي ، فمن المحتمل أنه رأى في بادي بدء شيئاً يشبه الكلب والضأن والإنسان فساها رأس الكلب ورأس الضأن^(٣) ورأس الإنسان . وكذلك رأى في « ذى الكفين » و « ذى الرجل » حيث قال : « لعل هذه الأسماء قد أطلقت على الأحجار المقدسة التي كانت تشبه هيئة الإنسان في نحتها الردي^(٤) » ويؤيده ماورد في الجلسد (اسم صنم كان بحضرموت) فقيل إنه كان « كجثة الرجل العظيم وهو من صخرة بيضاء لها رأس أسود وإذا تأمله الناظر رأى فيه صورة وجه الإنسان^(٥) » . وقيل أيضاً : « كان لطيء

(١) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢١١ . (٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢١١ .

(٣) معجم البلدان (أسماء الجبال) .

(٤) "Arabs" in Encyclopedia of Ethic & Religion by Hasting

(٥) معجم البلدان ص ١٢٢ تحت ج .

صنم يقال له « الفلّس » وكان أتماً أحمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجا ، أسود كأنه تمثال إنسان ، وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعقرون عنده ^(١) .

هذا ما يتعلق بمنهج خيال العرب ، أما ما يتعلق بكيفية نسج الأسطورة ، فالعربي يسمي الجبال التسمية التي تكون وفق تصوره لها ، وإذا أراد نسج الأسطورة لعب بالألفاظ وتمييق العبارة ، كما أنه يفرغ بتسمية الأشياء حسب المزايا التي يوصف بها ذلك الشيء في تصوره ؛ فإذا أردنا أن نبحث أسطورة عربية خالصة ، فيجب أن نبحثها من وجهة صناعة العرب اللفظية والمنطقية ، ذلك لأن العربي يسمي المواطن والأشخاص حسب الحوادث التي حدثت فيها ، أو تعلقت بها ، كما ورد في أخبار مكة ^(٢) : فخرج مضاض بن عمرو بن قعيقان في كتيبة ، سائراً إلى السميدع ومع الكتيبة عدتها من الرماح والدرق والسيوف والجباب تققع بذلك — ويقال ما سميت قعيقان إلا بذلك — وخرج السميدع بقطور من أجياد معه الخيل والرجال — ويقال ما سمي أجياد أجيادا إلا لخروج الخيل الجياد منه مع السميدع — حتى التقوا بفاضح فاقتلوا قتالا شديداً ، فقتل السميدع وفضحت قطور — ويقال ما سمي فاضح فاضحاً إلا بذلك ؛ وسمى مطابخ مطابخاً لأنه أطبخ للناس هناك ؛ وكذلك قيل إنما سمي « ثبير ثبيراً » برجل من هذيل مات في ذلك الجبل فعرف الجبل به ، وكان اسم الرجل ثبيراً ؛ ويقال ^(٣) إن الصفا والروة كانا اسمي رجل وامرأة اثما في الكعبة فسخما الله تعالى حجرين فوضعوا كل واحد منهما على الحجر المسمى باسمه لاعتبار الناس ، ثم أتى عمرو ابن لحي ونصب على الصفا صنماً يقال له نهيك مجاور الريح ، ونصب على الروة صنماً يقال له مطعم الطير ^(٤) ؛ ويقال إن أسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة من

(١) كتاب الأصنام ص ٥٩ . (٢) أخبار مكة ص ٤٠ .

(٣) عجائب المخلوقات ص ١٥٤ « تحت الجبال » .

(٤) أخبار مكة ص ٧٣ .

جرم يقال للرجل أساف بن يعلى والمرأة نائلة بنت زيد ، وكان الرجل يتعشقها في أرض اليمن فأقبلا حجاجا فدخلوا الكعبة فوجدوا غفلة من الناس وخلوة من البيت ففجر الرجل بها في البيت فمسخا ، فأصبحوا فوجدوها مسخين^(١) .

ومن أمثال ذلك ما قيل في جبل أبي قبيس في كنيته بأبي قبيس وهو :
« أن آدم كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس^(٢) ، وقيل : إنه أضيف إلى رجل من مذحج كان يتعبد فيه اسمه أبو قبيس ؛ ومعنى « أبي قبيس » « شيخ الجبال »^(٣) وكان من قبل يسمى بالأمين ، ولم يقف تصور العرب حول جبل أبي قبيس عند تلاعب الألفاظ والأوهام ، بل نسجوا حوله أسطورة قصصية ؛ فقد روى عن محمد أنه قال على لسان إياد بن نزار القصة التي يذكر فيها أن إياداً حمل الحارث بن مضاخ بن عبد المسيح على إبله إلى مكة ، فقال الحارث هذه الأسطورة في أثناء سفره ، وخلاصتها أن هذا الجبل سمي باسم أبي قبيس بن سامخ ، وهو رجل من جرم كان قد وشي بين عمرو بن مضاخ وبين ابنة عمه « مية » فنذرت أن لا تكلمه ، وكان شديد الكلف بها ، فحلف لأقتلن أبا قبيس فهرب أبو قبيس منه في الجبل المعروف به ، وانقطع خبره^(٤) .

هاك أسطورة أخرى نسجت حول جبلي طي ، قيل سار « طي » بإبله وولده حتى نزل الجبلين فرآهما أرضاً لها شأن ، ورأى فيها شيخاً عظيماً جسيماً مديد القامة على خلق العاديين ، ومعه امرأة على خلقه يقال لها سلمى ، وقد اقتسما الجبلين بينهما . فأجا رجل من العماليق يقال له أجا بن عبد الحى عشق امرأة من قومه يقال لها سلمى ، فسألها طي عن أمرهما ، فقال الشيخ نحن من بقايا حمار ، غنينا بهذين الجبلين عصرأ بعد عصر ، أفنانا كر الليل والنهار ، فقال له طي : هل لك في

(١) كتاب الأصنام ص ٩ .
(٢) معجم البلدان ص ٩٤ .
(٣) نهاية الأرب للقرنبي .
(٤) كتاب التيجان ص ١٨٠ - ١٩٧ .

مشاركتي إياك في هذا المكان فأكون لك مؤانساً وخلا ، فقال الشيخ : (الجبل) إن لي في هذا رأياً فاقم ، فإن المكان واسع ويقال إن لغة طى هي لغة الشيخ (الجبل) الصحارى والعجوز امرأته^(١) وقد يكون من أجل هذا تشخص الجبال في صورة شيخ أسطوري على خلق العاديين . قال الشاعر الجاهلي يشبه الجبل بكبير أناس :

كأن ثيرا في أفانين ودقه كبير أناس في مجاد مزمل

ثم أتى اللغويون ورأوا أن « أجا الرجل يعنى فرّ^(٢) » ، فكونوا أسطورة جديدة من أجزاء قديمة حول ثلاثة أجبل وهي أجا وسلى والعوجاء ، فقالوا إن أجا اسم رجل تعشق سلى ، وجمعتهما العوجاء وكانت لها حاضنة وكانا يجتمعان في منزلها حتى نزر بهما إخوة سلى وهم الغميم والمصل وفدك وفائد والحدثان^(٣) ، فهرب أجا بسلى وذهبت معها العوجاء ، فتبعهم زوج سلى ، فأدركهم وقتلهم ، وصلب أجا على أحد الأجبل فسمى أجا ، وصلب سلى على الجبل الآخر فسمى بها ، وصلب العوجاء على الثالث فسمى باسمها قال الشاعر :

إذا أجاً تلقى بشعافها على وأمست بالعماء مكله
وأصبحت العوجاء يهتز جيدها كجيد عروس أصبحت متبذله

وقصارى القول أن العربي المجازي كان في هذه الفترة يبحث عن ربه في الأودية الخصبية ، وكان ينسج الأساطير حول الجبال والآبار والأشجار ، وكان يرى صورة ربه في الأحجار التي تسترعى نظره ، ويرسم صوراً خيالية في الأحجار التي كان يبحث عنها في كل واد ؛ وهكذا كان شأن البابليين وجميع الأمم السامية في أول نشأتهم ، فلا غرو أن كانت آلهة العرب من الآبار والأشجار والحيوان ونحو

(١) معجم البلدان ص ١٢٧ ط ليزج .
(٢) لسان العرب « أجا » .
(٣) معجم البلدان ص ١٢٣ ط ليزج .

ذلك ، لأن هذه هي المظاهر الوحيدة التي كانت العرب تشاهدها ، وهي الملجأ الوحيد الذي كانت العرب تفرع إليه في حاجات ماسة ، وتلعب بها حولها أوهاها وخرافاتها في أوقات فراغها ، ويؤيده ما ورد في حقوق خضر البئر وواجباته ، فقد قيل : « والقلب^(١) البئر العادية القديمة التي لا يعلم لها رب ولا حافر ، فليس لأحد أن ينزل منها على خمسين ذراعا ، وذلك لأنها لعامة الناس » ، فظهر أنه كان لكل بئر أرض وكلاً مخصوص محصور ، كما كانت ذو العرجاء عيناً ياضم من ناحية المدينة ، والعرجاء قطعة من الأرض حولها ، فكان بعضها له رب يحميه ، وبعضها لا يعلم له رب ، والبئر الذي لم يكن له رب يكون الإله هو ربه وحاميه ، وهذا ما يسمونه بأرض بعل ؛ فهذا الحمى المعين لحدود خمسين ذراعا حول البئر كان هيكل الصنم ، وحرم الإله العربي القديم ؛ وقد قال النبي (صلم) : « لا حمى إلا لله ولرسوله » ؛ وكان من حقوق هذا الحمى أن لا يظلم الناس في هذه الحدود ، وأن لا يقنص الصياد الحيوان ولا الطير في هذه الأرض المقدسة ، فلا يبعد أن يكون هذا هو غرض عمرو بن لحي في تنصيب الأصنام على مواطن المياه والآبار وسواحل البحر ، كما قيل إنه نصب هبل على البئر التي كانت في جوف الكعبة ، وسميت بالأخسف ، وكذلك أقام أسافا ونائلة على خافي « زمزم »^(٢) ، ويؤيده ما قيل في الأسطورة التي تبين أثر حرمة البئر في حياة العرب الاجتماعية وهي : « كان^(٣) في الكعبة على يمين من دخلها جب عميق حضره إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل عليهما السلام حين رفع القواعد ، وكان يكون فيه ما يهدى للكعبة من حلى أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك ،

(١) لسان العرب ص ٢٠ « بير » .

(٢) وكذلك كان للجلد حمى مرعاة لأمه وغنمه (معجم البلدان) . وكان وادي سقام

العزى (كتاب الأصنام) .

(٣) أخبار مكة ص ١٦١ .

وكانت الكعبة ليس لها سقف ، فسرق منها على عهد جرم مال مرة بعد مرة ، وكانت جرم ترتضى لذلك رجلاً تكون عليه حراسته ، فبينما رجل ممن ارتضوه عندها ، إذ سولت له نفسه ، فانتظر حتى إذا انتصف النهار ، وقلصت الظلال ، وقامت المجالس ، وانقطعت الطريق ، ومكة إذ ذاك شديدة الحر ، بسط رداءه ثم نزل في البئر فأخرج ما فيها فجعله في ثوبه ، فأرسل الله عنزة وجل حجرا من البئر فحبسه حتى راح الناس فوجدوه فأخرجوه وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر ، فسميت تلك البئر الأخسف ، لأنه خسف بالجرهمى وحبسه ؛ وكذلك روى عن مجاهد قال : « دخل ^(١) مكة قوم تجار من الشام في الجاهلية بعد قصي بن كلاب فزلوا بوادي طوى تحت سمرات يستظلون بها فاخترزوا على ملة لهم ، ولم يكن معهم آدم ، فقام رجل منهم إلى قوسه فوضع عليها سهماً ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى ، فقاموا إليها فسلخوها وطبخوها ليأتملوا بها ، فبينما هم كذلك وقدرهم على النار تغلي بها ، وبعضهم يشوى ، إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة ، فأحرقت القوم جميعاً ، ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات التي كانت تحتها » .

هذا من بقايا الأساطير التي تدل على احتفاظ العربي بتقاليده في الحمى والبئر والجبال ، فهو صورة من صور التعليل العربي في حالة تدوين الأساطير ، فلا يبعد أن يكون النصب التي وجدت في بادية العرب مثل ذي الخلصة ^(٢) (وكان صروة بيضاء منقوشة) ، وسعد ^(٣) (وكان صخرة طويلة) ، ورضاء ^(٤) (وكان بيتاً لبني ربيعة) بقايا من هذا العصر ، لأن لهذه الأسماء علاقة بالتناول الذي كانت العرب تهتم به اهتماماً عظيماً ، وقد رأينا ما كانت عليه أوهام العرب في شجرة

(١) حياة الحيوان ص ٨٦ . (٢) كتاب الأصنام ص ٣٤ .
(٣) كتاب الأصنام ص ٣٧ . (٤) » » » » ص ٣٠ .

العشر والسمرات وفي بعض الأحجار في المذهب الحيوي ، وسنرى كيف تطورت هذه الأوهام في عبادة الشجر والحجر حتى صارت الأشجار والأحجار من آلهة العرب — من ذلك :

ذات أنواط :

كانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها : « ذات أنواط »^(١) ، وكانت ذات أنواط قريبة من مكة كما ذكره ياقوت ، يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعتكفون عندها يوماً .

ذو الخلصة :

كانت تسمى الولية والعملات ، وكانت بيتا في قرية ثروق وهي من البيوت التي تعظمها العرب تعظيم مكة ، لها سدنة وحجاب ، وكانت تهدي لها كما تهدي للكعبة وتطوف بها كما تطوف بالكعبة وتنحر عندها كما تنحر عند الكعبة . وبيت ذى الخلصة يشتمل على نصبين أحدهما مروة بيضاء (وزاد الكلابي بأنه منقوش عليها كهيئة التاج) ، وثانيهما شجرة الخلصة ؛ ومعنى الخلصة في اللغة نبت طيب الريح يتعلق بالشجر ، وله أوراق غير رقاق مدورة واسعة ، وله ورد كورد المروؤان ، وهذا النوع من الشجر يسمى العبلاء ، كما أن المروة البيضاء من الحجر الأبيض تسمى كذلك « العبلاء » فليست ذوا الخلصة إذاً إلا نوعاً من تطور عبادة الشجر أو الحجر ، وانتشرت عبادتهما^(٢) بقبالة بين مكة واليمن ، وكانت تعظمها وتهدي لها ختم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن^(٣) . وكانوا يستقسمون عند ذى الخلصة ، كما قيل إن امرأ القيس لما خرج يطلب

(١) أخبار مكة ص ٧٧ .

(٢) أخبار مكة — تعليقات رشدي صالح أفندي .

(٣) كتاب الأصنام ص ٣٥ .

بثأر أبيه استقسم عنده نخرج له ما يكره ، فسب الصنم ورماه بالحجارة وأنشد :
لو كنت ياذ الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبوراً
لم تنه عن قتل العداة^(١) زورا

وهكذا كانت العرب تتفاءل بالحيوان ، وتقديس الشجر وتستقسم عند كل
نصب كمادة الرعاة جميعاً .

سهر :

قيل إن سعداً كان لملك ولملك ابنى كنانة بساحل جدة ، وكان صخرة
طويلة فأقبل رجل منهم بإبل له ليقيها إليه يتبرك بذلك ، فلما أدناها منه تفرقت ،
فذهبت في كل وجه ، وتفرقت عليه ، وأسف فتناول حجراً فرماه به ، وقال :
لا بارك الله فيك إلها ، أنفرت على إيلي ، ثم خرج يطلبها حتى جمعها وانصرف
عنه وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعى انى ولا رشد^(٢)

ومن هذا السبيل^(٣) « الختمة » واحد حتم وهو القضاء ، وهى صخرات
مشرفات فى ربيع عمر بن الخطاب بمكة أو « الحطيم »^(٤) كان بمكة ، وقيل إن
الجاهلية كانت تتحالف هناك ، وكان العرب يتحطمون بالإيمان ، فكل من دعا
على ظالم وحلف إنما عجبت عقوبته ، وكذلك إلال اسم جبل بعرفات ، وقيل إن
إلال جبل عرفة نفسه . وروى عن الزبير بن بكار إلال هو البيت الحرام ، وهذا
يهدينا إلى أن إلالا كان له علاقة بالبيت الحرام ، فاشتبه الأمر عند المفسرين ،
فقال البعض إنه جبل عرفة كما قال الشاعر :

(١) كتاب الأصنام ص ٣٥ . (٢) كتاب الأصنام ص ٣٧ .
(٣) معجم البلدان ص ٢١٦ . (٤) معجم البلدان ص ٢٦٨ .

فأقسم بالوقوف على إلال^(١) ومن شهد الجمار ومن رماها^(٢) وذهب البعض أنه بيت الله وسمى « إلالا » لأن الحجيج إذا رأوه ألوا أي اهتمدوا إليه ، وقد يكون له علاقة بأوال^(٣) الذي كان صنما لبكر وتغلب ابني وائل . هذا ما كان يتصوره العربي فيما حوله ، وأما ما يتعلق بمشاهداته في السماء ، فكان يرسم بريشة النظر على رقعة الفلك كل ما كان يرى في البادية ، ويظهر هذا جليا في الأساطير التي نسجت حول أشكال النجوم والأنواء ؛ وقد بينا أهم تلك الأساطير في مدخل البحث .

أما تطور هذا الصنف في عبادة النجوم ، فقد سبقني الباحثون في بحث ذلك الموضوع وكتبوا تحت مذاهب الصابئة كتباً متعددة ، لكنني أرى أن منشأ الصابئة ليس ببادية العرب ، بل لم ينتشر مذهب الصابئة انتشار الوثنية المادية في بادية العرب ، وذلك لأن العقلية العربية لم تكن مستعدة لإدراك تصورات مجردة ، مثل تجريد النوم وتشخيصها في أشكال روحانية ، وهذا ما رأى نولدكه إذ يقول : « يظن أن مذهب العرب أو قل مذهب الساميين جميعاً مبني على عبادة النجوم ، لكن هذا الظن لا يتفق مع الحقائق التاريخية ، ومما لا نزاع فيه أن العرب عبدوا الشمس والنجوم الأخرى في عصر متأخر جدا ، أما الأوثان المتعددة غير النجوم فلا يمكن تفسيرها بأنها شكل من أشكال الكواكب^(٤) . وقصارى القول أن الأساطير التي نسجت حول الجبال والآبار والأشجار تدل على أن الوثنية المحلية تنحصر في تقديس الأشياء التي استفاد بها العربي البدوي ، لكنها لم تقف إلى هذا الحد ، بل استمرت وتطورت تحت تأثير الحضارة المجاورة .

(١) معجم اللسان ص ٣٢٠ .

(٢) تعليقات زكي باشا في « تكلمته » على كتاب الأصنام .

(٣) Encyclopædia of Ethic & Religion " Arabs " .

الفصل الثالث

الوثنية الخارجية في البلاد العربية

بينت في الفصول السابقة أن العربي الجاهلي قدس الآبار والأشجار والجبال ، ولكن لم أرد بتقديسها أنه شخص الماء وانصب في شخصيات تمثل ربا من أرباب الطبيعة ، بل أردت أنه دهش منها وقدسها إجلالا لندرته في يادية العرب ، وذلك لأن عقليته لم تكن مستعدة لإدراك تصورات مجردة ، كما أن الأساطير التي نسجها حول النصب تدل صراحة على أنه لم يعبد الوثن معتقداً أنه خالقه أو خالق الكائنات ، لأنه تارة يستقسم عند الوثن ، وتارة أخرى يسبه ويشتمه ، ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة ، ذلك إلى أنه لم يرد في الأخبار الجاهلية أن أمثال حاتم الطائي والسموئل ، أو سدنة البيت مثل عمرو بن لحي وقصى بن كلاب ونحوم ارتقوا إلى درجة الآلهة عند العرب كما أصبحت السدنة والملوك فيما بعد عند الأمم القدماء ، وقد يكون ذلك من أجل أن العرب لم تسجد أمام النصب مثل الوثنيين الآخرين ، بل اقتصرت على الطواف حوله .

لم يكن الوثن في تصور العرب ربا إلى القرن السادس ق . م ، لأن عرب الحجاز ونجد لم يكونوا متصلين بالوثنية المجاورة ولم يتأثروا بالوثنية البابلية أو الرومانية أو اليمنية قبل ذلك القرن ، نعم لقد غزا بختنصر تهامة فيجوز أنه نشر الوثنية الأشورية في تلك البقعة ، أما الوثنية اليمنية فإن كانت قد دخلت في الحجاز ونجد فيكون ذلك بعد انهيار سد مأرب^(١) منذ القرن الثاني المسيحي ،

(١) Historian's History of the World "Arabs"

فهي متأخرة ، لأن حادثة عمرو بن لحي حدثت بعد هجرة أزد اليمن إلى الشمال . ولكن إذا رجعنا إلى تنقيب الباحثين عن آثار الساميين^(١) القدماء رأينا أنهم اتفقوا على أن الأشوريين واليمنيين كانوا يحتفظون في وثيقتهم بمكان واسع لأصنام الكلدان والأشوريين من زمن بعيد ، فقد ورد في تاريخ العالم للمؤرخين أن نظرة سريعة في الأخبار التي وصلت إلينا تبين أن أساس التصورات الدينية عند القبائل السامية في بلاد العرب يكاد يكون مطابقاً لما يوجد عند الساميين في سوريا أو في وادي الفرات ، ولا يبعد هذا عن الصواب لأن مدينة بابل وآشور كانتا أقدم مصدر للحضارة في شبه الجزيرة ، ولو أنها لم تكن منبع الحضارة العالمية . فيجدر بنا أن نغير الوثنية البابلية اهتمامنا لكي نعرف كيف تأثرت العرب بالعقائد المجاورة ولماذا تأثرت ، ولأى سلطة دينية خضعت ، ولأى ملة مالت .

قيل كان البابليون يعتقدون في ثلاثة آلهة عظيمة أنو (Anu)^(٢) أي رب السماء ، وبعل (Baal) أو مردوخ (Merduke)^(٣) خالق الأرض والإنسان ، وهيا^(٤) (Ea) رب الماء تحت الأرض ، وهذه الآلهة الثلاثة تكون الثالث الأول ، بينا الثالث الثاني كان مركباً من الإله سين (Sin) والإله الشمس (Shamsh) والإله (Rimman) إله الرعد والبرق . وكانوا أيضاً يعتقدون في الإله نرجال (Nergal) إله الحرب ونيبو (Nebu) إله النباهة . وكان لكل واحد من الآلهة أنو وبعل وهيا إلهة تزوج بها لتعاونه في إيجاد الخلق وهي أنت (Anatu) بعليت (Belit)

(١) Historian's History of the World "Aarbs"

(٢) Babylonians and Assyrian Literature

(٣) Kings Babylonians Religion

(٤) Encyclopedia Britanica

ملاحظة : هذه الآلهة مأخوذة من تاريخ المشرق للمسيو ماسيرو تعريب أحمد زكي باشا ، وتاريخ كلد وآشور لأزدي شير .

ودومكينا (Domkina) . وكانت من أعظم آلهتهم المشتار التي أرادوا بها فصل الربيع أو الطبيعة الهيوالية ، واللاتو (Allatu) ملكة الهاوية أو الموت (Hades) ومامناتو (وهي إلهة القضاء والقدر) . لم تكن وظائف الآلهة محدودة تحديداً معيناً لأنها تغيرت في كل عصر وفق دواعي البيئة ، حتى ارتقت من الصفات الأرضية إلى الصفات السماوية ، فأصبح مقر مردوخ في المشتري ، ونرجال في المريخ ، وعشتار في الزهرة ، ونيبو في عطارد . وكانت هذه الأصنام ترتفع في المراتب وتنزل وفق دواعي العصر ، كما أن ميردوخ ورث سلطان آشور ونقوده بعد ما أصبحت بابل عاصمة البلاد . وكان يعرف باسم بعلو كما كان يعرف باسمه الحقيقي الذي هو ميردوخ على السواء . وقد صار نابوبولاصر ونابوناheid في عصر حمورابي أعظم آلهة الكلدانيين شوكة ، وبعده نقلت آلهة الكلدانيين من مدائنهم ووضعوا حول ميردوخ كالأتباع ، ودارت الأيام دورتها واقتضى العمران تسيير الأمور القديمة وفق الدواعي الحديثة ، فاقترضت عملية التوفيق والتطبيق أن تجتمع كافة الصفات التي كانت تتمتع بها الآلهة المتعددة في ذات الإله مردوخ ، الذي كان في مبدأ الأمر إله الشمس فقط ، وبذا أصبح حامل صفات بعل وهيا وشمس ونرجال وسين وغيرها .

مرت على مردوخ أو بعل طقوس متعددة فكان في مبدأ الأمر إله الفصل ، ثم صار إله الشمس وإله المطر ، ثم خالق الإنسان في أسطورة الخلق البابلية . وكذلك مر على عشتار التي كانت تمثل فصل الربيع ، فأصبحت ربة الحب والجمال ، ثم إلهة الحب ، ثم إلهة الزهرة . ومردوخ والزهرة من الأصنام البابلية التي انتشرت عبادتها في بلاد العرب جميعاً ، وكذلك إذا رجعنا إلى وثنية آشوريا واليمن رأينا أن أكثر أصنام بابل وآشور التي انتشرت عبادتها في سوريا واليمن هما أيضاً مردوخ وعشتار . وقد اقتفت هذه الأصنام عند السورين واليمنيين أثر

التغيرات الأرضية والسماوية التي طرأت على الوثنية الكلدية والآشورية ، فكان أعظم آلهة سوريا : ساهور والشمس وحداد إله الرعد والبرق وقرينته أثارجيتس وكان هيكل حداد في هليوبوليس ، وكان الفلاحون يعبدونه كحارس الفصول ، كما كان البابليون يعبدون مردوخ كرب الأرض ، ثم اندمجت عبادة هذا الإله في عبادة الشمس . وفي العصر الروماني أصبح حداد جو بيتر (Jupiter) كما كان مردوخ (Marduke) يمثل الشمس أولاً ثم أصبح جو بيتر .

أما تأثير بابل في عقيدة بني إسرائيل فيظهر من مقارنة الأساطير المأخوذة من ألواح بابل بما ورد في التوراة ، ولقد ذهب بعض العلماء إلى أن يهوا (Jahweh) هو البعل عند اليهود ، ويكفي ما كتبه كنج (King) في هذا الموضوع في كتاب ألواح الخلق السبعة^(١) . وأما تأثير بابل في ديانة اليمن التي قيل إنها عبادة النجوم من جميع النواحي^(٢) . فذلك أن أهل اليمن كانوا يعتقدون القمر إلهاً ويؤثرون عبادته على إلهة الشمس ، كما كان الكلدان تقدر وتقدم القمر على الشمس — إلا أن عبادة النجوم حتى عند البابليين لم تكن قديمة^(٣) وكما أن معظم أصنام اليمنيين وهي : استار (Sthar) — وود — وناكروب والشمس ، وآلهة حضرموت وهي : أستار وأنومائي والشمس ، وآلهة سبأ وهي : أستار وهوباس والمالكوهو . كل هذه الآلهة ما عدا أستار والشمس أصنام غير بابلية ، وهي أيضاً غير ما عبد العدنانيون . فيظهر من هذا أن العدنانيين ما كانوا يختلفون عن اليمنيين في الحالة والمعيشة والحضارة واللغة فقط ، بل كانوا يختلفون في وثنتهم أيضاً ؛ ذلك إلى أن معظم اليمنيين كما قيل كانوا يعبدون

(١) Page XXXI. Seven Tablets of Creation.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (Arabia before Islam) Encyclopedia of Islam

(٣) King's Babylonian Religion.

النجوم ، بخلاف^(١) المدنائين الذين كانوا لا يعبدون النجم إلا قليلاً منهم ، وذلك في عصور متأخرة .

ومن أغرب الأمور ألا تتأثر الوثنية العربية بأهل الجنوب كما تأثرت بالعرب الشماليين ؛ وكان أجدر أن تكون الوثنية في بادية العرب هي الوثنية اليمنية نفسها لهجرة أهل اليمن إلى الشمال بعد حادثة سد مأرب ، ولكن الوثنية الحجازية يظهر أنها صورة تقليدية للوثنية البابلية . فالوثنية العربية في هذا العصر اختارت شكلاً تقليدياً ، وذلك لأن العربي رأى الأوثان المنحوتة فأحلمها محل نصبه القديمة كما هي ، وكذلك وقف على الأسطورة التي نسجت حول تلك الأوثان فلم يزد فيها شيئاً من عند نفسه ، بل أخذها كما هي ، فدعت هذه الأساطير إلى تحويل عقليته من فكرة بدوية إلى فكرة زراعية . وقد ورد في أسطورة بابلية^(٢) أن الملك ازدوبار رأى في المنام أن نجوم السماء هوت على الأرض ، وأن واحداً منها كان شعلة من النار خلف وراءه عنقاً من النار مثل كرة عظيمة على ظهره قامت النار هذه أمامه قيام إله عظيم مخوف ، فلما أن زالت الدهشة عنه طلب الملك تعبير رؤياه من المنجمين ، فوقفوا حائرين أمام هذا اللغز ، فبحثوا عن ساحر عظيم ، فذهبوا إلى هيباني (Heabani) النازل بعيداً في الصحراء ، فجاء هيباني وفسر حلم الملك ، وقال سيظهر إله من الآلهة ، تؤدي أعماله السيئة إلى البغض والعداء ، فوجد فكرة مماثلة لهذه الأسطورة في الخرافة العربية التي تقول إن ربيعة^(٣) بن نصر بن مالك التبع ، رأى رؤيا هالته فبعث إلى جميع الكهان والسحرة والمنجمين من رعيته فاجتمعوا إليه ، فقال إني رأيت رؤيا هالتي ،

(١) Encyclopedia of Islam "Arabs".

(٢) Babylonian Literature P. 33. Second dream of King Isdubar.

(٣) قيل إنه تبع الحميري في المسعودي ص ٣٩٥ وفي كتاب السحان ص ٢٩٣ .

وفزعت لها ، فقالوا : قصها علينا فنخبرك بتأويلها . فقال : إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم في تأويلها ، ولست أصدق في تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الذي يروع الملك لا يجده إلا عند شق وسطيح . فلما أخبروه بذلك أرسل من أتاه بهما . فقال سطيح : أيها الملك إنك رأيت حممة (قطعة من النار) خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة ، وأكلت منها كل ذات جمجمة . فقال الملك : ما أخطأت شيئاً فما عندك من تأويلها ؟ فقال سطيح : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، ليهبطن أرضكم الحبش ، وليلكن ما بين أس إلى جرش . فإذا قارنا بين هاتين الأسطورتين وجدنا أن الملك ازدوبار رأى قطعة من النار في المنام فبعث رسولا إلى كاهن عظيم معروف في ذلك الزمان فأتاه به وعبر حله بأن تقوم الحرب ضد الملك ، وهذا هو فخوى الأسطورة العربية ، وذلك لأن الملك التبعي رأى مثل ازدوبار أى قطعة من النار ، وبعث رسولا إلى كاهن معروف عبر حله كما عبره هيباني .

ومما يدل على تأثير العرب بكلمة وآشور أن من عادة العرب تقديم الليالي على الأيام كما قال البيروني : « إن العرب فرضت أول مجموع اليوم واللييلة قطعة المغرب على دائرة الأفق فصار اليوم عندهم بليته من لدن غروب الشمس عن الأفق إلى غروبها من الغد ، والذي دعاهم إلى ذلك هو أن شهرهم مبنية على مسير القمر ، مستخرجة من حركاته المختلفة ، وأوائلها مقيدة برؤية الألهة لا الحساب^(١) . وهذا يخالف نظرية الروم والفرس ويوافق نظرية الكلدان الذين كانوا يقدمون إله القمر على الشمس ، وكانوا يعتبرون الإله سين الرئيس والقادر . ودليل آخر أن العرب تأثروا بوثنية الكلدان وآشور وهو ما قيل من أن كلمة صنم أصلها صلح (Salm) وهي كلمة آرامية دخلت البادية العربية ، فثبت

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية لبيروني .

أن أسماء الأوثان لم تدخل هي فقط في بلاد العرب بل دخلت أيضاً كلمة الصنم مع دخول التمثال فيها ، ويؤيده ما ورد عن أصنام تهمامة . فقد قيل إن لوح تهمامة يذكر أسماء الأصنام الآرامية الثلاثة وهي : صلح وسنكال وعشره . والصلح هذا في تفسير بعض العلماء عبارة عن بعل ، وكذلك عبد العرب اللاتو (Allatu) ومامناتو وبعل (هبل) كما كان البابليون يبدونها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه ثابت أن العرب لم ينحتوا الأصنام لجهلهم بالفنون الجميلة ، فالظاهر أن الأصنام المنحوتة مجلوبة من الخارج . وسواء أكانت هذه الأصنام مجلوبة في عصر حديث ، أو جاء بها العرب حينما افترقوا من إخوانهم الساميين ، فليس منشؤها قطعاً بلاد نجد والحجاز . وإذا كان تحول الإله من بلد إلى آخر يشخصه في شخصية غير التي كان يتمتع بها في موطنه الأصلي ، كما كانت الأساطير التي نسجت حول ذلك الإله تصبغ بصبغة محلية وفق تبديل الإله من صفة إلى صفة أخرى تحت تأثير البيئات المختلفة فسنذكر من أشهر الأصنام البابلية التي انتشرت عبادتها عند العرب والأصنام التي نعرف عن أساطيرها شيئاً ما ، وترك الآلهة التي لا نجد سوى أسمائها . ومن أراد أن يطلع على تلك الأسماء الإلهية المترجمة فحسبه ما ذكره الكلبي في كتاب الأصنام التي نسج الأستاذ وهوسن (Wellhausen) حولها شبكة تخمينات وقياسات منطقية وبنى عليها الأستاذ نولدك آراءه في مقالة « العرب » . أما أنا فلا أرمي إلى تلك الغاية ، وذلك لأنني أبحث عن تطور التفكير العربي مستدلاً بأساطيرهم الموجودة . فهناك أشهر الأصنام وأساطيرها :

هبل :

قال الأستاذ « جورجى زيدان » إن لفظ هبل لا اشتقاق له فى العربية^(١) من معناه ، فهو غير مشتق من لفظ عربى ، وعندنا أنه عبرانى أو فينيقى ، أصله « هبل » ومعنى بعل (السيد) ثم قال : إن الهاء فى العبرى أداة التعريف مثل « أل » العربية ، فإضافة هذه الأداة إلى بعل يريدون الإله الأكبر . وقال : أما العين الزائدة فهبل إهالها بالتخفيف ، ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصاً فى لفظ بعل ، لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » بإهال العين ، وهو اسم هذا الإله عندهم . وربما كان المؤابيون (Moab) يلفظونها « هبل » . فإذا صح هذا التعليل اللغوى فلا يبقى شك فى أن هبل هو بعل . وذهب أورت (Oart) ودوزى (Dozy) إلى أن بعل الإسرائيلى هو هبل القرشى فى مكة ثم قال^(٢) : « إننى أعتقد أن السؤال الذى يتعلق بكون عبادة بعل عبادة تنجيمية فى أساسها لا جواب له ، لأن علم النجوم — كما نعلمه — لم يكن موجوداً فى آسيا الغربية قبل عصر الآشوريين والكلدانيين ، أو لم يكن له أثر دنى على الأقل »^(٣) . وقد رأينا أن بعل تمتع بصفات متعددة ، ومرت عليه طقوس مختلفة ، فأصبح بعل هذا مردوخ (Marduk) فى بابل نفسها^(٤) ، ثم دخل بعل فى بلاد إسرائيل فانقسمت شخصية إله إسرائيل إلى شخصيتين ، الشخصية الأولى هو بعل الحصوبة ، والشخصية الثانية « يهوا » (Jeheuh) إله الفقر والبؤس والتقوى^(٥) . ثم أخذه الإغريق فى القرن السابع قبل الميلاد وسموه أدونيس

(١) أنساب العرب القدماء جورجى زيدان .

(٢) The Worships of Bealim " in Israel " by Oart .

(٣) P. 36 .

(٤) Babylonian Religion by King P. 18 .

(٥) Hastings Dictionary of Bible " God " P. 201 .

(Adones) وكان اسمه البابلي «تموز»^(١) وهو يلقب بالمردوخ (Marduke) وبعل أيضاً . وقبل أن أقول شيئاً في صفة هبل في الحجاز ونجد أرى أن أترجم ما قاله نولدك في هذا الصدد ، قال : إن اللقب الإلهي بعل «السيد» الذي كان معروفاً عند الساميين الشماليين ورثه عرب جزيرة سيناء تحت اسم بعلو . والذي وجد في النقوش عقب أسماء العلم مثل «عبد البعل» و«أوس البعل» و«جرم البعل» . ووجدت عبادة هذا الصنم بأرض شرف البعل التي كانت على الطريق الواصلة بين المدينة وسوريا ، ولم تكن التسمية به عند العرب المتأخرين ، ولكن بعض الكلمات العربية تدل على أنه كان معروفاً عند العرب زمنياً ما ، ومن أمثال ذلك الكلمة «أرض البعل» أو «البعل» فقط ، يطلق على الأرض التي لا تزرع من المطر ولا من الري بالآلة ، بل تسقى من عين مختبئة تحت الأرض ، ولذلك تأتي بأبرك الأثمار^(٢) . وخلاصة ما قاله نولدك أن بعل ليس عربياً ، بل أخذه العرب من جزيرة سيناء وعرفوه لفظاً ومعنى ، وقد ورد في التنزيل : «أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين» ، فقال الله سبحانه بعلاً ولم يقل هبلاً ، وفي هذا ما يدل على أنه كان يسمى بعلاً عند بني إسرائيل . وقد يكون له علاقة بأُم هبير (Umm - Hubur)^(٣) وهو من ألقاب تيامات (Tamtu)^(٤) البحر الأسطوري عند البابليين ، فقد قيل إن البابليين ينسبون خلق كل شيء إلى نهر أسطوري . وذهب الباحث عن مبدأ هذا النهر إلى أنه الفرات نفسه^(٥) ، وأن أم هبير من ألقابه ، ولا تخفى المشاكلة اللفظية بين هبير

(١) Golden Bough P. 325. Myth of Adonis

(٢) Hastings Encyclopedia of Religion & Ethic. "Arabs" by Noldeke.

(٣) Umm - Hubur.

(٤) P. XC. IV Seven Tablets of Creation.

(٥) Vol. I, edited by L. W. King.

وهبل . وكذلك يتفق معنى بعل « السيد » بمعنى هيرالدى يراد به ما فوق ،
والواقع أن « بل » (Bel)^(١) كان إله الأرض والإنسان عند البابليين ، وبعل
إله الخصب والزراعة في بلاد إسرائيل ، فالمحتمل في هذه الحالة أن يكون هذا
الإله إله الخصب عند العرب أيضاً ، والدليل على ذلك أن عمرو بن لحي قدم
بصنم يقال له « هبل »^(٢) من هيت من أرض الجزيرة ، وكان هبل من أعظم
أصنام قريش ، فنصبه على البئر في بطن الكعبة ، وأمر الناس بعبادته ، فكان
الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه
عنده وكان اسم البئر التي في بطن الكعبة الأخصف ، وكانت
العرب تسميها الأخصف . وقد بينا سابقاً تقديس العرب لمواطن الماء ، فإقامة
هبل على بئر يشير إلى أنه كان له علاقة بالرزق والخصب في عقيدة العرب أيضاً .
كما كان اليهود يعتقدون أنه إله النعمة والسعادة ، ويؤيد ذلك أيضاً ما ورد من
بين الأقداح السبعة عند هبل التي ذكرها الأزرقى قال : كان قدح فيه
« المياه »^(٣) فإذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقدح ، وفيها ذلك القدح ،
فحيث ما خرج عملوا به ، وقالوا : « يا إلهنا هذا فلان أردنا به كذا وكذا
فأخرج الحق » . لكن العرب لم تقتصر على الاستقسام به على المياه فقط ، بل
كما قال الكلبي إنهم استقسموا بهبل ، وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة
أقداح مكتوب في أولها صريح والآخر ملصق ونحو ذلك . فهذه صيغة محلية
دعت البيهة إلى أن تطبق العقائد القديمة الخارجية على العقائد المصرية الموضعية .
فجعلت الأقداح للقضاء والقدر حسبما جرت عادة العرب فيه من قبل . وليس من

P. 14. Babylonian Religion. (١)

(٢) أخبار مكة ، الأزرقى ص ٦٨ .

(٣) » » » » ٦٨ .

المستغرب أن يكون الصنم على صورة الإنسان ، وذلك لأن بعلا كان كذلك عند الكلدانيين والآراميين ، فإنهم كانوا يصورون^(١) « بيل » على صورة ملك جليل جالس على عرش عظيم ، ولم تشك العرب وكذا المستشرقون في العصر الحديث في كونه مجلوباً من الخارج كما قال ابن الكلبي^(٢) : « كان فيما بلغني من عتيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليميني — أدركته قریش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب » . وكان اصناعة اليد المكسورة هذه أثر خالد في العقلية العربية التي أخذت منذ ذلك الزمن تتصور الإله في صورة الإنسان حقيقة ، كما يظهر من الخرافة التي رأت العزى في صورة امرأة . فالعرب صوروا هبل كما صور الكلدانيون بعلا وعبدوه كأله الخصب مثل عقيدة اليهود فيه ؛ ولذلك لا أتردد أن أقول إن هبل كان إله الخصب والرزق ، ومن ثم إله السعادة وشبه رب الأرباب في عقيدة العرب ، وهو الإله الذي عناه عمرو بن لحي حينما قال^(٣) : « إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ويشتو بالعزى لخرتهامة » .

الهوت :

هي^(٤) كلمة قديمة وردت في الأدب البابلي الذي يرجع عصره إلى ثلاثة آلاف سنة تقريباً . وهي اسم إله من آلهة البابليين ، وكانت هذه الآلهة من بنات رب الأرباب وأخواتها وهي : مامناتو (Mamnatu) وعشتار (Ishtar) . وتظهر اللات في قصيدة فروسية ازدوبار (Epic of Isdubar) كملكة التي تحكم وتأمّر على الهاوية التي سجنّت فيها « عشتار » ، ووصف الشاعر لتلك الحالة يثبت لنا أن اللات تمثل فصل الصيف ، كما تمثل عشتار فصل الشتاء

(١) تاريخ كلد وآشور المجلد الأول ص ٧ (٢) كتاب الأصنام ص ٢ .

(٣) أخبار مكة ص ٧٤ . (٤) Babylonian and Assyrian literature P.94 .

أوالربيع ، ففي موقف من مواطن تلك القصيدة يصف الشاعر سجن عشتار ويقول : « إن عشتار^(١) سجننت فامحى الحب والحياة والحصب عن وجه الأرض ، فسلط حكم اللات على الأرض وهو حكم شدة الشمس المحرقة والمعش والبؤس والفقر والفساد ، ثم بعث رب الأرباب رسولا إلى اللات وأمره أن يرش الماء على وجه اللات الغضبي ويهدى شدتها بتلقيبها بألقاب متعددة لكي تفرح اللات برؤيته May allat's face rejoice before thy Sight^(٢) . فاللات تغيرت أحوالها حسبما اقتضى العصر كتغيير الآلهة البابلية الأخرى ، وحينما دخلت اللات في سوريا أصبحت قرينة حداد (إله المطر) ، وسميت ببارجيتس^(٣) . ثم أخذها النبطيون وسموها ربة البيت ، ويظهر أن ذا شرى سموه رب البيت كما يظهر من نقوش النبطيين ومن نقوش أميرة في بعلبك^(٤) ، وقيل على رواية إيفانيوس (Epiphanuis) إن ذا الشرى لم يكن إلا شكلا من أشكال اللات^(٥) ، ولذلك يصح ما روى ولوسن من أن اللات إلهة الشمس^(٦) ، ويؤيده قول استرابو (Strabo) الذي قال : إن النبطيين يعبدون الشمس .

وخلاصة^(٧) القول كانت عبادة الشمس دخيلة في العرب كما قال ابن الكلابي : « هي أحدث من مناة » وهي من الأصنام التي جاء بها عمرو بن لحي حسب رواية العرب ، فأخذها العرب من النبطيين ، أما الدليل على أن العرب أخذوها

(١) Babylonian and Assyrian literature P. 93.

(٢) 94.

(٣) Encyclopedia of Religion & Ethic " Syria ".

(٤) P. 18. The Religion of Ancient Palestine through the light of Arceology.

(٥) Kinship & Marriage P. 298.

(٦) Encyclopedia of Religion " Arabs ".

(٧) The Geography of Strabo P. 369.

من النبطيين فهو كونها صخرة مربعة بيضاء عند العرب كما كانت صخرة مربعة عند النبطيين^(١). وكانت بنو ثقيف يسمونها ربة كما كان النبطيون يلقبونها بربة البيت، وكان البابليون يرون فيها تمثال فصل الصيف والنبطيون يعتبرونها إله الشمس، وكذلك العرب ينسبون إليها فصل الصيف كما قالوا: «ربكم يتصيف باللات لبرد الطايف»، أما ما يتعلق بقولهم أن رجلاً من مضي كان يقعد على صخرة ثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مروا فبليت سويقهم، وكان ذا غنم فسُميت صخرة اللات، فمات فلما فقدته الناس قال لهم عمرو^(٢): «إن ربكم كان اللات فدخل في جوف الصخرة»^(٣)، فهو أسطورة حديثة اخترعت بعد ما ضاعت الخرافة القديمة التي بينها آفاً. ويجوز أن تكون هذه الصخرة غير الصخرة المربعة التي كانت تسمى باللات فإذا صح ذلك جاز أن تنسج هذه الأسطورة حول آلات ذي العرجاء التي قال فيها أبو ذئيب^(٤):

فكانها بالجزع بين تبابع وآلات ذي العرجاء نهب مجمع
وأما الأسطورة الثانية فاخترعت بعد ضياع الأسطورة السابقة فهي لا تتبين
أى صفة من صفات الآلهة المذكورة، وذلك لأنها فكرة عربية خالصة، وهي
نتيجة العقلية التي لا تخترع صوراً خيالية، وكلما حاولت هذه العقلية توليد الأسطورة
حول ذلك الوثن، نسبت الصخرة أو العين مع أكتها (آلات ذي العرجاء)
إلى الرجل المحترم الذي كان يخدم الحجيج على مجرى عاداتهم القديمة.

العزى:

نرى في النقوش^(٥) البابلية كلمة (Izzu-Sarri) وذهب المفسرون في تفسيرها

(١) Kinship P. 299.

(٢) أخبار مكة ص ٧٤.

(٣) أخبار مكة ص ٧٤.

(٤) معجم البلدان المجلد الأول ص ٣٢٠.

(٥) Babylonian literature P. 12.

إلى أنها تدل على ملك النار ، وإذا كان يراد بالنار ملكا فعنى العزو « النار » في اللغة البابلية . أما في العبرية فهي مشتقة من مصدرين إما من عنزاز يعنى شدد وقوى ، وإما من عن « يعنى ألجا ، فالحتمل أنه يراد بالعزى في العبرية^(١) » الأقوى . وعلى رواية تيودورس بركوني هي نجم ، كما قيل إن « استرناهي نجم الصبح . ولها أسماء كثيرة تختلف باختلاف الألسنة ، فطبي دعها عوزى ، واليونان أفريدوت (Aphriduta) ، والقدشيون طشمقيت ، والكلدان بلتي ، والآراميون استيرا ، والراداتيون ملكة شعيا ، والعرب ناتي^(٢) . فيظهر من كل هذا أن كلمة العزى من لغة بني طي ؛ والمعروف عند المؤرخين القدماء أنهم كانوا يسمون العرب طيئا^(٣) . فنستطيع إذن أن نقول إن العزى عند العرب هي بيلتي أو عشتار عند البابليين ، وقد قيل في الأدب البابلي إن عشتار دعيت ميليتا (Mylitha) أو بيلتي (Bellits) في عصر هيرودوت^(٤) . وقصارى القول أن العزى عند طي هي عشتار عند البابليين . وقد انتشرت عبادة عشتار في البلاد العربية كغيرها من الآلهة البابلية^(٥) ، وتغيرت أحوالها بتغيير المناطق والأقاليم ، وإن بقيت معها بعض مزاياها السابقة ، فاندججت في عبادتها طقوس عبادات متعددة فكانت عشتار (إله فصل الربيع والحب) وحيبة مردوخ (Marduke) أو بعل (Bél) إله الأرض والإنسان في بابل ، ثم أصبحت عشتار نجم الصباح في عصر حمورابي . ولو صح ما ذهب إليه فريزر فمثلت عشتار دور أفريدوت (Aphrodite) عند الإغريق وهي التي خبأت أدونيس (بعل) عند طفولته

(١) P. 105. Religion of Palestine.

(٢) تاريخ كلد وآشور المجلد الأول لأزدشير ص ٨ .

(٣) Historians History of the World.

(٤) Babylonian literature P. 65.

(٥) منع انتشار عبادة بعل .

في الصندوق الذي أودعته عند برسيبون (presephone) (اللات) ^(١) ثبت أن عشتار وييلتي وعزى كلمات مترادفة المعنى .

لاريب أن العرب عبدت العزى ، يقول نولدك : « إن الشاعر السوري إسحاق الأنطاكي الذي كان يعيش في أوائل القرن الخامس يذكر عبادة العزى عند العرب المعاصرين ، وفي بعض المواضع يحقق أن العزى هي الزهرة (Venus) . وفي أوائل القرن السادس أهدى المنذر ملك الحيرة إلى العزى قرباناً من الإماء الأسرى كما ذكر ذلك لنا الكاتب السوري الذي كان معاصره . وقال أيضاً معاصره بروكوييس إن المنذر نفسه قدم ابن حليفه المسيحي الملك الحارث قرباناً إلى العزى وكان أسيره . وذكر لنا عبادة الزهرة عند العرب كثير من المؤرخين مثل إيفرمن سيرس (المتوفى ٣٧٣ بعد المسيح) وجرومي وتيودورس وايفاجنيس . وحكي نيلوس (Nilus) (المتوفى سنة ٤١٠ م) قصة القبيلة العربية البدوية التي كانت تهبى الذبائح في صورة متوحشة إلى نجم الصبح تحت اسم العزى على أغلب الظن ^(٢) ، وكذلك قال الكاكي إنها كانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون إليها .

عبدت العرب العزى ، ولكن ما هو الدليل على أن عبادتها دخيلة وأنها هي نفس عبادة عشتار؟ رأينا أن عشتار كانت تمثل فصل الشتاء في أسطورة تموز البابلية ، ثم مثلت الخصب والحب والجمال ، وأصبحت بنت الإله أي أم بني آدم ، وتطورت من صفات أرضية إلى صفات سماوية حتى صارت الزهرة عند الإغريق . وهكذا نرى تطور العزى عند العرب ، فكان لها في مبدأ الأمر

(١) Golden Bough the Myth of Adonis.

(٢) Encyclopedia of Religion & Ethic "Arabs."

علاقة بالشتاء كما يظهر من قول العرب : « إن ربكم يشتو بالعزى لخرتهامة »^(١) . ثم صارت إلهة الخضر حينما قامت على ثلاث سمرة في وادي نخلة ، وصعدت إلى السماء في صورة امرأة حسناء وسميت الزهرة كما قال البلخي في قصة هاروت وماروت : « اختلف المسلمون في ذلك اختلافاً كثيراً ، فروى بعض أهل الأخبار أن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم قال للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » . فلما خلق آدم وأظهرت ذريته في الأرض الفساد ، قالت الملائكة : يارب أهؤلاء الذين استخلفتهم في الأرض ؟ فأمرهم الله أن يختاروا من أفاضلهم ثلاثة ينزلهم إلى الأرض ليحملوا الناس على الحق ، ففعلوا ، قيل وجاءتهم امرأة فافتتنوا بها حتى شربوا الخمر وقتلوا النفس وسجدوا لغير الله سبحانه وتعالى ، وعلّموا المرأة الاسم الذي كانوا يصعدون به إلى السماء فصعدت ، حتى إذا كانت في السماء مسخت كوكباً ، وهي الزهرة ، قالوا : وخير المكان بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا ، فهما معلقان بشعورهما في بئر بأرض بابل ؛ يأتيها السحرة فيتعلمون منها السحر » . وقد روى عن ربيع بن أنس^(٢) أنه قال في هذه القصة كانت امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة ، مع أنه ليس في كتاب الله شيء من هذا ، ويظهر من هذه الرواية أن خرافة مسخ الزهرة دخلت في قصة هاروت وماروت على يد المفسرين تحت تأثير دواعي العصر ، فإذا طرحنا مسخ الزهرة من قصة هاروت وماروت فإنه لا يضر ولا ينقص شيئاً من أساس القصة . أما ما يتعلق بجزء الملكين فكيفي ضلالتهم في تعلم السحر وقتل النفوس والشرك بالله بأن يعذبهما الله تعالى .

وخلاصة هذه الرواية أن العزى عند العرب مثات امرأة حسناء في صورة

(١) أخبار مكة ص ٧٤ . (٢) البدء والتاريخ للبلخي ج ٣ .

الزهرة مثلما ظهرت في بابل وعند الإغريق رأت كافة طقوس العبادة التي رأتها عشتار عند البابليين . كانت امرأة حسناء وبنثاً من بنات الله في تصور العرب ؛ كما كانت امرأة حسناء و بنت الإله عند البابليين . أما في الخرافة التي تقول إن خالد بن الوليد بعث إلى العزى ليهدمها ، فخرج خالد بن الوليد وهو متغيظ ؛ فلما انتهى إليها جرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة نائرة شعرها^(١) ؛ فإنا نرى الوجه الجميل قد تغير فيها إلى وجه امرأة سوداء كريهة المنظر ، وما ذلك إلا رد فعل الأسطورة القديمة في عصر الإسلام ؛ وهاك دليلاً آخر ، قال كوك (Cook)^(٢) وهو يصف تمثال عشتار : إنها امرأة تلبس القلائد والقرط والقناع ، أما القناع فهو من ميزات تمثال عشتار ، وكانت هذه الإلهة تسفر عن وجهها أمام عبادها فقط . وقيل إن مثل هذا السفور يتراءى لنا في الألواح الأكادية . وكذلك^(٣) وجدت الآلهة الملبسة القناع في بتر (Petra) فالقناع الذي كان من ميزات عشتار كان للعزى في تصور العرب كما قال شاعر :

أعزى شدى شدة لا تكذبى أعزى أتقى القنباغ وشمرى
 أعزى إن لم تقتلى المرء خالداً فبوتى بإثم عاجل أو تنصرى^(٤)

وصفات العزى المتعددة هذه حمت نولدك على أن يشك في كونها إلهة نجمية في عقيدة العرب المتأخرين ، إلا أن العادات الكثيرة المتعلقة بعبادة نجم الصباح عند البابليين وغيرهم توافق العادات التي انتشرت عند العرب في عبادة العزى ، وورد في الأدب البابلي أن البنات كانت تباع في عيد عشتار^(٥) في

(١) أخبار مكة ص ٧٥ ، وبتغيير بسيط في كتاب الأصنام للكلي .

(٢) Religion of Palestine P. 126.

(٣) Foot-note Bel. Pales. P. 126.

(٤) كتاب الأصنام وأخبار مكة ص ٧٥ .

(٥) Babylonian literature.

عصر ازدوبار (Isdubar) ، وكذلك قال اسمث إن الزهرة بأرض ألوسة كانت الإلهة (ذى الخلصة) التي انتشرت عبادتها بتبالة في اليمن ، وكانت تجتمع حولها نساء دوس في عيدهم^(١) ، وكذلك كان للعزى علاقة بالنساء والزواج ، وهذا ما نراه في عادات العرب الجاهلية ، قال الألوسى : كانت المرأة من العرب إذا عسر عليها خاطب النكاح نثرت جانباً من شعرها وكحات إحدى عينيها مخافة للشعر المنشور ، وحجبت على إحدى رجلها ، ويكون ذلك ليلاً ، وتقول : « يا نكاح ! أبغى النكاح قبل الصباح ! »^(٢) ، فيسهل أمرها وتزوج عن قريب . فانظر إلى كلمة « قبل الصباح » فإنها تدل صراحة على أن تلك البائسة تحذر وتنذر الناس في تسهيل أمرها قبل طلوع نجم الصباح ، وزيادة على ذلك كان الحمام والغزال من حيوان عشتار عند البابليين والسوريين ، وكذلك كان يقدس الحمام والغزال وقد وجدت الغزال في بئر زمزم ، ولا يخفى أثر الغزال في حياة العرب الجاهليين ؛ ولقد كانوا مفرمين بتشبيه النساء الجميلات بالغزال . فهذه المقارنة بين صفات العزى وعشتار تحملنا على أن عبادة العزى عند العرب هي نفس عبادة عشتار . ويؤيد كونها دخيلة في الحجاز قول الكلبي : « هي أحدث من اللات ومناة ، وذلك أني سمعت العرب سمعت بهما قبل العزى »^(٣) .

وإذن نلخص القول فنقول : إن العزى عند العرب تقلبت في كافة الطقوس الأرضية والسموية التي تمتعت بها عشتار عند البابليين ، فالعزى بنت « هبل » إله الخصب والرزق ، ومثلت فصل الشتاء ضد اللات التي مثلت فصل

(١) P. 301. Kinship & Marriage.

(٢) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٣) كتاب الأصنام لكلبي .

الصيف ، ثم أصبحت نجم الصباح حينما ظهرت اللات في صورة الشمس . ليس
بغريب كل هذا لأن الفصول^(١) في فلسطين كانت تمثلها صورة امرأة .

مناة :

اشتقاقها في اللغة العربية إما من (م . ن . ن) أو من (م . ن . ا)^(٢) .
أما الأول فهو إما بالضم مثل المنة فعناها القوة ، وإما بالفتح (منة) ومعناها
القطع أو النقص ، ومنه قوله تعالى (فلهم أجر غير ممنون) ، ومنه المنون « الدهر »
والمنون أيضاً المنية لأنها تقطع المدد وتنقص العدد . وأما الاشتقاق الثاني فمنه المنية
ويراد بها الموت ، واشتقاقها من منى له أى قدر والجمع « المنايا » ، والمنية واحدة
المنى ، وقال صاحب مفردات القرآن « المنى التقدير » يقال منى لك المانى « أى
قدر لك المقدر . وكذلك أراد به صاحب لسان العرب القدر إذ قال : « حتى
تبين ما يبنى لك المانى » ، فيراد من « مناة » القدر عند اللغويين . والواقع أن القدر
كان مركز أفكار العرب ، والمحور الذى كانت تدور حوله رعى التصورات
الجاهلية ، ولقبه الشعراء الجاهليون بأسماء مختلفة مثل المنون والمنية ، والدهر ،
والزمان ، وأشبه ذلك . يعبر عنه طرفة بالأيام كما قال : « ستبدي لك الأيام
ما كنت جاهلا » . فهذه الأسماء المختلفة والتشبيهات الشعرية دعت نولدك إلى
أن يزعم « أن العرب صوروا بعض المعانى فى شخصية الإله وشخصوها بجميع المزايا
المادية ، وذلك لأنهم منذ عهد قديم عرفوا بعض القوى الطبيعية التى تتوقف
عليها سعادة الإنسان وشقاوته ، أجل إن كثيراً من هذه الشخصيات لا يتجاوز
حدود الشر ، ومنها الزمان الذى يتوهمه العرب بأنه السبب الوحيد لنعم العيش

Religion of Palestine P. 205. Foot-note. (١)

(٢) مختار الصحاح .

وشظفه ، كما يزعم الذين قالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر » . وكذلك يلح الشعراء إلى تأثير الدهر والزمان الذي يقبونه بالليل والنهار ، ويصورونه كالذي يسوق الناس إلى الموت ، وكالرامي الذي لا تطيش سهامه . وقال الأستاذ في موقف آخر : إن شاعراً من قبيلة بني بكر بن وائل أنشد في بيت من أبياته أن سهام عوض (الدهر) رمته في عضلاته ومفاصله ، والعوض على رواية الكلابي صنم بكر بن وائل وكان الشاعر من تلك القبيلة نفسها . ومن هذه التشبيهات يستدل الأستاذ على أن العرب شخصوا المعاني في شخصيات مادية خيالية^(١) .

« نعم » لقد كان الدهر رامي السهم وساقى كأس المنية في تصور العرب ، لكن العرب لم يكتفوا بهذه التشبيهات بل قالوا :

والنبايا جواشم كالصقور المدلة

ومثلوا المنية بالأعشى ، كما شبهوا فعل المنية بنحيط عشواء كما قال الشاعر :

رأيت المنيا نحيط عشواء من تصب تمته ومن تخطى يعمر فيهم^(٢)

فكان المنيا تأتي على غير قصد بخلاف القدر يأتي بالقصد ، وكذلك المنية لا تنحصر في القضاء والقدر ، بل تكون على قول ابن شميل منى بمعنى ذبح^(٣) . وعلى رواية الجوهري يراد بالمنية الناقة الأيام التي يتعرف فيها الألقح هي أم لا ، فظهر من هذا أن العرب استعملوا كلمة المنية بمعنى القدر مجازاً ، ونستدل على ذلك بأن منى موضع بمكة قديم العهد ، وسمى منى على رواية لسان العرب^(٤) : « لما يمني فيها من الدماء » أي يراق ويؤيده ما قال ابن شميل : « سمي منى لأن الكبش منى به أي ذبح » . فقد يكون منى في أول نشأته مذبح الجاهليين ، وقدس عند العرب كتقديسهم للأحجار الأخرى . وقد بينا الأسباب التي دعتهم إلى عبادة

(١) Encyclopedia of Religion & Ethic « Arabs. »

(٢) مملقات . (٣) لسان العرب . (٤) لسان العرب ص ١٦٣ .

الأحجار . أما ما يتعلق بقول نولدك من أن العوض الذي يراد به الدهر كان صنما تعبده العرب فهو فكرة شاذة ، كما يعترف بها الأستاذ نفسه . والعرب على جرى عاداتهم أطلقوا معنى الدهر على أشياء مختلفة ، فكان اللبد بمعنى الدهر ، والعوض نفسه من أسماء النور التي لم تكن إلا عبارة عن عمر طويل في أسطورة لقمان بن عاد التي ذكرناها سابقا . فلا إخال أن شغف العرب بالدهر وبما يتعلق به دعاهم إلى تصور الدهر في شخصية الإله مثل الأمم المتحضرة ، كلا ! لم يتطور التطور العربي إلى درجة خيال كهذه في الأيام الجاهلية . ودليل آخر على ذلك ، أضافت العرب الضمائر المستترة إلى المنية فقالوا لحقنى الدهر ، أدركته منيته ، وكذلك استعمل كثير من الشعراء كلمة المنايا جمعا أكثر مما استعملوها مفردة فقال مثلا أبو ذؤيب : « منايا يقربن الحتوف لأهلها » ، وكذلك قال السويد بن عامر المصطلق « إن المنايا توافي كل إنسان » ، وقال زهير بن أبي سلمى « فقصوا منايا بينهم ثم أصدروا »^(١) ، فثبت من هنا أن للمننية تصورات متعددة في ذهن العربي ، ولم تجتمع صفات الموت والقدر والزمان في شخصية واحدة ، فكيف والحالة هذه نعتقد أن العرب شخصوا الدهر في إله ، وأنهم أقاموا الصنم معبرين به عن تلك الأحلام . فضلا عن ذلك لم تتفق العرب في تشبيه الدهر ، فصوروه تارة في صورة الراعى الذي لا يطيش سهامه ، وتارة أخرى في صورة الصقر وشبهوه نائمة بالأعشى الذي يخبط خبط عشواء في تنفيذ أعماله ، فلم يرسخوا الدهر على لوح ذهن في صورة كاملة . فهذه التشبيهات مع تقائصها لم تكن إلا خيالا شعريا ، وكل ما يمكن استنباطه من تلك التشبيهات فهو لا يزيد عن كونه دلالة على تطور التصور العربي في عصر متأخر ، وأن ذلك التطور لم يصل إلى درجة الخيال القصصى المبني على ارتباط العلة بالمعلول ارتباطا منسجما

(١) معلقة زهير .

مثل اليونان والإغريق . فثبت أن العربي لم يمثل القدر إلهاً ، واكتفت عقليته الساذجة المحدودة أن تقنع بأن الدهر هو المحيي والمميت ، ولم يطرأ بباله يوماً ما أن مجرد هذا الدهر مما يحيط به من المادة والمحسوسات ، وأن يصعد به إلى سماء المعاني المجردة . ولكن هناك^(١) صنم على ساحل البحر من ناحية المثل بقديد بين مكة والمدينة ، يسمونه مناة ، وههنا أوس وخزرج يعظمونه ويذبحون له ويهدون إليه ، وهذا عمرو بن الجوح^(٢) اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له : « مناة » وقد تسمى العرب عبد مناة وزيد مناة فإذا كان المراد بهذه العبادة عند العرب ؟ لقد بينا سابقاً أن التمثال مع كلمة الصنم دخيل في بادية الحجاز ونجد فكانت مناة هذه صنماً وفق ما ذكره أغلب الرواة ، وكانت أقدم الأصنام التي جاء بها عمرو بن لحي كما قاله الكلبي ، فبديهى أن عبادتها دخلت في بادية الحجاز ولم تولد فيها ، ويؤيده ما ورد في الأدب البابلي أنه كان لهم آلهة الموت والقدر باسم مامناتو^(٣) (Mamnatu) ، وكذلك ورد مناواة في أقدم النقوش النبطية^(٤) . فلا يخفى على القارئ المشابهة البارزة بين كلمة مامناتو ومناواة ومناة . وأما من قال إنه صخرة (لسان العرب) فيجوز أن تكون عبادة مناة المجلوبة اندمجت في عبادة منى القديمة ، ثم اشتبه الأمر على العرب المتأخرين فشتت آراءهم ، وانتصرت فكرة المتحضرين على البداوة . وقد تكون تلك التشبهات من منتجات ذلك التصادم الفكري .

وخلاصة القول كانت مناة العريضة هي نفس مامناتو البابلية ، لأن الدهر والقدر في تصور العرب والشعراء الجاهليين رجل لا امرأة ، أما « مناة » فهي

(١) كتاب الأصنام صفحة ١٣ . (٢) سيرة ابن هشام صفحة ٢٧٢ .

(٣) Babylonian literature P. 93.

(٤) Encyclopedia of Ethic & Religion « Arabs. »

بنت الإله عند العرب . قال تعالى : (ألكم الذكر وله الأنتى) كما كانت بنت الإله عند البابليين ، وقد مثلت الموت عند العرب كما كانت تمثل الموت والقدر أيضاً عند البابليين ، وقد قالوا في خطابهم إلى ما مناتوا : « يا مناة يا إلهة القدر والموت » « ويا أيها الروح الخفيف وملك الموت ^(١) » .

“Omam-mitu, Thou God of Fate & Death”.

“Thou spirit of fierce hate & porting breath”.

فمناة عند العرب تمثل الموت لا الدهر ، لأن الدهر في تصورهم ذكر ومناة أنثى . وقد يكون من أجل هذا استقسم العرب عند هبل وذى الخلصة ، ولم يستقسوا عند مناة بل حلفوا أمامها كما يقول عبد المزي بن وديعة المزني :
إني حلفت يمين صدق مرة بمناة عند محل آل الخزرج ^(٢)
وتأثير هذا الحلف والوفاء بالمهد في حياة العرب الاجتماعية لا يحتاج إلى مزيد التعريف ، ويؤكد صفة مناة ما قيل من أن سيفين (مخدوم ورسوب) وجدا عند مناة حينما هدمت عام فتح مكة ^(٣) لأن السيف رمز العدالة والإنصاف عند أهل البادية .

ور :

اشتقاقه في اللغة ^(٤) العربية من ودد يعني تمنى أو أحب ، وهي قريبة من كلمة بابلية دودو (Dndaim أو Du Du) ويراد به شجرة الحب (man-Drahc) ^(٥)
وقد تكون (ودد) العربية (دود) العبرية أو البابلية ، لأن كثيراً ما يحدث

(١) Babylonian literature P. 110.

(٢) كتاب الأصنام ص ١٤ . (٣) كتاب الأصنام ص ١٥ .

(٤) مختار الصحاح .

(٥) Babylonian literature Page 2.

التقديم والتأخير في استعمال الحروف ، فمثلا كلمة « حنش » تكتب في العبرية نحش ، وكلمة جنوب تكتب نجب ، لذلك يمكن أن يكون الفعل ودّ الذي هو في العبرية دود يدل على الحب ، ومن هذا نعلم في العبرية أن كلمة دود (Dod) معناها الحبيب ، ثم دواديم (Dwadim) معناها الحب أو التسيب أو الغزل ، ثم يكون معنى الاسم داود . وبالعبرية (دواد) يدل على الوداد والمحبة . فيظهر أن ودّا تطور عن شجرة الحب البابلية . ويثبت أنه دخيل في بادية الحجاز كونه صنما قبل كل شيء وليس من النصب ، وقد بينا أن العرب لم ينحتوا الأصنام بل جلبوها من الخارج ، وأنهم أخذوا مع تلك الأصنام الأسطورة التي كانت تتعلق بها ، ويؤيده ما قال الكلبى أن عمرو بن لحي جاء بالأصنام من بقاء أو من هيت ، فوزعها بين قبائل مختلفة ، وكان من هذه الأصنام ودّ . هذا وقد قيل إنه صنم إغريقى الأصل لأنه يشبه الصنم المعروف باسم ايرس (Eros) ودليلهم على ذلك أن تمثال ودّ كان على رواية الكلبى^(١) رجلا كأعظم ما يكون من الرجال « قد ذُبر (أودثر) عليه حلتان ، متزرجحة ومرتد بأخري ، عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء وفضة (جبة) فيها نبل » فهذا يشبه ايرس الإغريقى الذى يمثل الرامى بقوسه ونباله . لكن نولدك^(٢) يشك في كونه ايرس ، وذلك لأن ودّا يحمل السيف واللواء ومدثر بجلتين ، وهذا لا يوجد في تمثال ايرس (Eros) ، فهو يعيل إلى أنه ليس بصنم إغريقى . وكون تمثال ود لا يتفق مع تمثال ايرس لا يدل على كونه صنما عربيا بل يؤكد أنه غير صنم إغريقى فقط ؛ هذا والاختلاف في وصف التمثال لا يمنع علاقته بايرس في وظيفته ، لأنه قد يكون ايرس نفسه تمثالا فينيقيا مثل

(١) كتاب الأصنام ص ٥٦ .

(٢) Encyclopedia of Religion & Ethic "Arabs".

أدونيس وتغيرت صورته في اليونان . وقد قيل إن ودا بهذا الاسم مثل القمر عند
اليمنيين^(١) ، وتلقب مردوخ باسم دو—دو (Du-Du) في بابل^(٢) ، فكان ود
يمثل بعل أستيره (Astarte) في اليمن وعاشق عشتار في بابل ، وصورة إيرس إله
الحب عند الإغريق .

وعبد العرب ودا كما يظهر من اسم العلم « عبد ود » واتفقت روايات على
أن ودا كان من الأصنام التي استمرت عبادتها من عصر نوح إلى عصر الإسلام
ومثل ود دور الحب عند العرب أيضاً . وكان أول من أجاب دعوة عمرو بن لحي
إلى ذلك الصنم عوف بن عذرة^(٣) ، وقبيلة عذرة لا تحتاج إلى مزيد التعريف في
كونها المثل الأعلى للحب والعشق والصفة . وهذه القبيلة هي التي قيل لرجل منها :
« ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة ؟ إنما ذلك ضعف فيكم يا بني عذرة ،
قال : « أما والله لو رأيتم النواظر الدعج ، تحتها المباسم الفلج ، فوقها الحواجب
الزج ، لا تخذتموها اللات والعزى^(٤) » ، وقصارى القول لقد مثل ود الحب عند
العرب كما يظهر من اتسابه إلى بني عذرة ، ومن قول الشاعر أيضاً :

حيالك ود فإنا لا يحل لنا لهُ النساء وإن الدين قد عزما^(٥)

فهنا يشير الشاعر صريحاً إلى أنه كان لود علاقة بلهو النساء قبل ما يعزم
الدين . وأما ما قاله نولدك^(٦) من أن كلمة « ود » لم تستعمل في الحب الجنسي
عند العرب القدماء ، بل كان لهم كلمات أخرى لذلك المعنى ، فهذا لا يمنع من أن

(١) Encyclopedia Beritanica "Arabs".

(٢) The Seven Tablets of the Creation, The Fifty Tilles of Mardouke.

P 173.

(٣) كتاب الأصنام ص ٥٥ . (٤) صبح الأعشى الجزء الأول ص ٣١٧ .

(٥) كتاب الأصنام ص ١٠ .

(٦) Encyclopedia of Religion and Ethic (Arabs).

يكون ود صنم الحب والعشق ، وذلك لأن ودا صنم مجلوب وكذلك معناه كما قلنا سالفا . فيجوز أن يكون العرب المتأخرون استعمالوا ودا في معنى الحب ولو مجازا بعد انتشار عبادة ذلك الصنم . فقول نوليك يؤكد أنه صنم خارجي ، وكذلك لفظه ومعناه .

قزح :

قيل إن كلمة^(١) كوز (Kos) وجدت في أسماء اليهود القدماء مثل باركوس (Barkos) يعني ابن كوز ، ورأى « كوك » علاقة بينه وبين الإله الأدومي (Edomite) الذي هو من أجزاء الأسماء مثل كوش ملكا (Koush-malaka) وكوش جبرى (Koush-Gabri) وهما من الأسماء التي ترجع زمنها إلى عصر تجلت بلاسر الثالث (Tiglath Pileser III) وقال « كوك » : إن كوز إله^(٢) أدومي وأنه القزح العربي والرامي اللاهوتي الذي كانت نباله البرق وكان قوسه قوس قزح ، فقد كان إله الجبال والبرق والرعد والمطر وكان العرب يحافظون على عبادته بقرب مكة^(٣) . فهو يقابل حداد (Hadad) إله المطر عند السوريين ، وریشب (Resheph) إله الحرب عند البابليين . وصفة قزح توافق الآلهة التي كانت تمثل وظيفة إله الحرب مثل أبولو (Appolo) الإغريقي ، فظهر من هذا أنه صنم أدومي (Edomaeen) وانتشرت عبادته في أنحاء شبه جزيرة العرب واعتنقه العرب أيضاً^(٤) كما قال صاحب معجم البلدان أن جمع ضد التفرق هو المزدلفة وهو قزح

(١) Religion of Palestine P. 204.

(٢) P. 203.

(٣) P. 204.

(٤) معجم البلدان ص ١٢٨ .

وهو المشعر المسمى جمعاً لاجتماع الناس به ، فكان هذه الصخرة الوثن الذي عرف قومه بقوس قزح ، والذي أصبح شيطانا في عصر الأديان . ويؤيده تقاليد العرب أيضاً وذلك لأن العرب كانوا يوقدون النار على مزدلفة ، ونار المزدلفة أشهر نيران العرب في الأدب الجاهلي . وكانوا يقصدون منها نزول الغيث ، فكان « قزح » إله الرعد والبرق والمطر عند العرب ومن ثم إله الحرب أيضاً .

الفصل الرابع

تصور الإله عند العرب

كان الناس أمة واحدة ثم اختلفوا ، فبعث الله الأنبياء ، فآمن من آمن وضل من ضل واتبع هواه ، ولم يلتفت إلى ما قال الله سبحانه وتعالى « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا »^(١) . هذا ما ورد في التنزيل ، وهو يثبت الروايات والتقاليد القديمة ، فإذا وافق الإسناد التاريخي هذه الروايات والنقول لقلنا بصفة المؤرخ إن مجيء إبراهيم في واد غير ذي زرع هو وصول فكرة التوحيد إلى البادية العربية . وإذ نحن بصدد البحث في تفكير الأمة ، فيجب أن نفضل النقل المتواتر على آراء المؤرخين . وعليه نقول إن التوحيد كان معروفاً في عصر إسماعيل كما يظهر من الروايات ؛ غير أن بني إسماعيل نسوه فيما بعد وضلوا عن سواء السبيل ، كما يظهر من بعض أقوالهم وتقاليدهم حول الأوثان . ولذلك سنبحث تصور الإله من وجهتين ، كما قسمنا بحث التفكير العربي الجاهلي في المذاهب المتعددة .

ينقسم بحث تصور الإله إلى قسمين : الأول بحث تصور الإله قبل التاريخ . والثاني بحث تصور الإله في عصر التاريخ ، وهذا البحث الثاني يتفرع إلى فرعين : الفرع الأول هو الزمان الذي كان يعاصر الأنبياء ، والفرع الثاني الزمان الذي يراد به الفترات المتقطعة بين نبي ونبي آخر ، وهذه الفترات تمثل فكرة الشعب فيما فهموا ضد الأنبياء كما بينا في تاريخ الوثنية عند العرب .

(١) سورة النساء الآية ١٣٥ .

الفصل الخامس

الإله في عصر ما قبل التاريخ

قال دافيدسون (Devidson) في مقاله^(١) (God) : « لعل الأسماء :
 « إيل » (El) ، و « إيلوهم » (Elahim) ، و « شدي » (Shaddai) ،
 و « يهوا » (Yehweh) ، كانت تستعمل في عصر ما قبل التاريخ ، فمانيها
 مبهمة ومجهولة » . وقيل إن كلمة إيل وجدت في نقوش كثيرة ، وعثر العلماء على
 أسماء مثل : وهب الإيل ، وعبد الإيل ، وزيد الله ، وعبد الله في النقوش التي
 اكتشفت في إقليم الصفا . ولم يرد لفظ الله أو هاله (Hallah) في النقوش النبطية
 كاسم علم ، بل كان دائماً يصحب اسماً من أسماء الأصنام ، إلا في نقوش الصفا
 التي وجد فيها لفظ الله « منفرداً بذاته » . قال وهوسن : « لعل العرب مثل
 النبطيين يلقبون كل صنم من الأصنام « بالله » ، فلفظ الله الذي كان لقباً في
 أول نشأته أصبح علماً لأكبر إله^(٢) » . وذهب بعض الباحثين إلى أن هذا
 اللفظ يشتق من كلمة عبرية معناها شدد وقوى ، ويجمع الإله على إيلوم . وورد
 في النثر العربي مصحوباً بالصفات كالإله الأزلي والإله المتعال ، لكن الأنبياء
 والشعراء يستعملونه علماً . ووجد في اللغة الآرامية كالأيله (Elah) وفي اللغة
 العربية « إله » ، ومع أداة التعريف الإله أو « الله » ، وقال الرازي في إيراد

(١) Hastings dictionary of Bible P. 189.

(٢) Encyclopedia Ethic & Bible (Arabs).

Dictionary of Bible, by Hastings (109) c.

تفسير نجر الدين الرازي .

حجج الذين قالوا إنه اسم مشتق ، قال : فإنهم ذكروا فيه فروعا ، يقال إن الإله هو المعبود سواء عبد بحق أو بباطل ، ثم غلب في عرف الشرع على المعبود بالحق ، وقيل إنه مشتق من الوله وهو ذهاب العقل ، ومن لاه إذا ارتفع ، ومن أله في الشيء إذا تحير فيه ولم يهتد إليه ، ومن لاه يلوه إذا احتجب ؛ لكن المذهب المختار عنده أن هذا اللفظ اسم علم لله تعالى ، وأنه ليس بمشتق ألبتة . وكل ما ثبت من هذه المناقشات اللغوية أن كلمة الإله لها علاقة بما قبل التاريخ ، وأنهم كانوا يطلقونها على العلي العظيم أحيانا كاسم علم ، وأحيانا كلقب وثن . وبعد هذا يجدر بي أن أنتقل إلى البحث التاريخي لكي أعود إلى ما بدأت .

الفصل السادس

الإله في عصر التاريخ

بدأنا التاريخ بمجيء إبراهيم إلى مكة ، إذ ولد في العراق ونشأ في حضن الوثنية ، وبلغ رشده ، فأنكر ربوبية الأوثان ، وشرع يبحث عن ربه في المظاهر الطبيعية « فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون»^(١) . فكان إبراهيم يبحث عن الخالق في الخلق وعن الصانع في صناعته ، ثم هداه الله تعالى إلى ملكوته فعرف ربه الذي لم يزل ولا يزال . وجاء بهذا الإله الغائب عن الحواس البشرية ، والمحيط بكل شيء^(٢) . وأقام له ذكراً في بادية الحجاز وجعله قبلة مباركة للناس ثم ينقطع التاريخ إلى أن نجد شذرات في القصص التي دونت في التوراة في القرن الثامن أو العاشر . م أو في الروايات المبعثرة والمدونة في عصر الإسلام . وإذا رجعنا إلى تلك القصص نشعر بوجود فكرتين في ذلك العصر : أولاهما عقيدة الأنبياء ، وثانيتهما عقيدة الشعب ؛ فكانت عقيدة الأنبياء تمثل عقيدة إبراهيم ؛ قال داودسن^(٣) : « ولم يطرق بال أي نبي ولا بال مصنفى التوراة أن محتجوا على

(١) سورة الأنعام ٧٦ — ٧٨ وانظر H. «The Talmud, selection from» By H. Polons Page 33.

(٢) قرآن والتوراة في الإصحاح السادس عشر .

(٣) The Theology of old Testament. by A. B. Davidson. Page 31.

وجود الإله ، ولو فعلوا ذلك لكان من غير جدوى ، لأن الأنبياء وكتاب التوراة غاصروا البيئة التي كانت تعتقد في الإله من قبلهم ، مع اعترافنا بقول داودسن في مصنفى التوراة ، لا نرى أنهم عاصروا البيئة التوحيدية ، وذلك لأن فكرة الشعب التي تحكى عنها التوراة نفسها تخالف عقيدة مصنفى التوراة ، وكذلك النقوش التي تفسر فكرة الشعب تخالف فكرة التوحيد ، وليس هذا بموقف يستدعى الاستغراب كما استغرب منه « كوك » حينما قال : « إن النقوش تدل على الوثنية والكتب المقدسة تدل على التوحيد » ، ذلك لأن الكتب المقدسة تعلن أنها جاءت مخالفة عقيدة الشعب . والواقع أن أودية العرب ظلت ساحة الكفاح والمناظرات بين الوثنية والوحدانية منذ عصر قديم ، ويظهر هذا من المقارنة بين النقوش التي تذكر عدة أصنام لكل بلد ، وبين الكتب المقدسة التي تهاجم وحدانيتها تلك الفكرة الجاهلية من كل صوب . وكمن الكتاب والفلاسفة في عصرنا هذا ليستمسكون بنظرياتهم الخاصة وهي تختلف عما عليه عامة الشعب ، ما دام هذا شأن النابغين ، فماذا يكون شأن الأنبياء الذين يجاهدون في إعلاء كلمة الله بتأييد الوحي والإلهام والإرادة الإلهية ؟

ظهر الأنبياء وهم يعتقدون في الإله الواحد القهار ، فكانوا يميزون الخالق عن الكائنات ، فلم يكن الإله عندهم من بين مظاهر الطبيعة ، بل كان العلة الأولى لتلك المظاهر ، ثم ورث العبرانيون عقيدة الإله الواحد من آبائهم الأوائل ؛ ولم يتدرجوا من عبادة الموجودات إلى فكرة التوحيد . ويعتقد العبرانيون أن الإنسان لم يصل إلى معرفة الإله بشق الأتس ، بل الإله أظهر نفسه وعرف ذاته ، وكلم أتقى عباده وهداهم إلى سواء السبيل ؛ فظهر الله لموسى عند الشجرات وعلى الجبال ، وللأنبياء الآخرين في الإلهام والوحي ، ولكن العبرانيون أيضاً لم يبقوا على فكرة التوحيد كما علمهم الأنبياء ، بل كلما بعدوا عن عصر النبي

ذهبوا بعيداً عن تعاليمه ، وفي روايات التوراة نرى أن الله الذي كان هو خالق الأرض والسماوات أصبح إله بني إسرائيل فقط ، وذلك لأن موسى لما ذهب إلى فرعون قال له : « هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعبدوا إلى في البرية »^(١) . فعلى هذه الرواية إنما دخل موسى مصر لينقذ بني إسرائيل من مصر ، لا ليدعو فرعون إلى إله العالم كله . كما أن يهود مصر نسوا إله إبراهيم وإله آبائهم ، حتى بلغ من نسيانهم له أن الله لما قال لموسى^(٢) : « فالأن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر » . قال له موسى : « الله من أنا حتى أذهب إلى فرعون ، وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر » . فقال : « إني أكون معك وهذه تكون لك العلامة أني أرسلتك حينما تخرج الشعب من مصر تعبدون الله على هذا الجبل » . فقال موسى : « الله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم ، فإذا قالوا لي ما اسمه فإذا أقول لهم ؟ » . فقال الله لموسى : « أهية الذي أهية »^(٣) . ويظهر من هذه الآيات أيضاً أن العبرانيين هم شعب الله ، وقد قال موسى : « لكي تعلموا أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل »^(٤) . فهذا الإله المحصور في شعب بني إسرائيل هو كأي صنم آخر كانت القبائل تعبده .

كان العبرانيون يدعون الله برب إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ورب العبرانيين ، كما كان الوثنيون يدعون إلههم برب قریش ورب آشور وبابل ورب ربيعة ، ويؤكد ذلك رواية أخرى ، قيل لما جاء يثروحمو موسى وأبناء زوجته إلى موسى وبين لهم موسى ما صنع الله لبني إسرائيل على المصريين ، قال

(١) خروج الاصحاح الخامس عدد (١) .

(٢) خروج الاصحاح الثالث عدد (١٠ - ١٤) .

(٣) خروج الاصحاح الحادي عشر عدد (٧) .

يثرو: « الآن علمت أن الله أكبر من كل الآلهة »^(١). فكانوا لا يفرقون بين الله والآلهة الأخرى قبل نصرته نبي إسرائيل على المصريين ؛ وبعد ما رجع بنو إسرائيل إلى فلسطين وعاشوا مدة في الخلفض والدعة أخذوا يشخصونه على شاكلة الإنسان من جميع النواحي ، واحتجوا بأنه « خلق الإنسان على صورته »^(٢). فلم يكن الله في تصور اليهود ذا عينين ولسان ويدين ورجلين ، وإنما كان ذا عواطف ووجدان مثل البشر ، فتجسدت هذه المعاني في تصورهم ، فصار إله العبرانيين المعنوي إليها ماديا كالأصنام الأخرى ، وقال داودسن : « إنه يظن أن أهل مواب (Moab) وأدوم (Adome) الذين كان إسرائيل ينسب إليهما كانا موحدين ، والحق إنما كان للمواب صنم كيموش (chemosh) وكذلك كان يهوا إله اليهود في الجنوب وبعل إله بني إسرائيل في الشمال »^(٣) ، فبدأ التنارع بين هذين الصنمين وانتهى بانتصار يهوا ، وظل يهوا إله بني إسرائيل إلى أيام هجرتهم ، فكان يهوا هو المحيي والمميت وخالق الأرض والسماوات والإنسان ، وكان له بنات وبنون كما قيل « وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات ، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فآخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا ، فقال الرب لا يدين روجي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه ، هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة ، كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذووا اسم »^(٤) ؛ ولم يفكروا أن الأرض والسماء لله جميعاً ؛ ويظهر هذا جلياً إذا تقرأ وصية يعقوب ويوسف

(١) ترجمة التوراة لأبي سعيد بن أبي الحسن بن أبي سعيد السامري الجزء الثاني ص ٢٠٥ .

(٢) تكوين عدد (٢٧) .

(٣) Dictionary of Bible P. 258.

(٤) تكوين الاصحاح السادس عدد (١ - ٤) .

لأبنائهما عند الموت « فوصى كلاهما أن إله بني إسرائيل يرجعهم إلى فلسطين ليرثوا تلك الأرض فقط ، فيؤخذ ميتهما إلى أرض فلسطين ، وأن لا يدفن في أرض مصر »^(١) .

بعد ما زالت مملكة سليمان وداود ، وأصبحت بلاد بني إسرائيل مستعمرة الروم ، وصار بنو إسرائيل في منتهى النلة والمسكنة ، واحتملوا الشدائد والعذاب من جميع النواحي ، أخذوا يذكرون العيشة الرغيدة التي تمتعوا بها في مملكة داود فتمثل لهم هذا الرجاء الآمل في عقيدة عودة المسيح ، وفي هذه الفترة ظلت عقلية اليهود في حالة تقهقر ، وكانت عقيدتهم تتبع عقلية السلطة والحكومة ، ولذلك أثرت فلسفة الروم والوثنية المجاورة في عقيدتهم أثراً كبيراً ، ويتجلى هذا في فرق اليهود الدينية ، فمثلا فرقة « إسنيس » (Essenes) تنقسم إلى فريقين عمليون ونظريون ، وكانت عقيدة الفريق الأول كما يرى « موشيم »^(٢) « كانوا مثل اليهود الآخرين يعتقدون في وحدانية الإله ولكن يظهر من بعض مدارسهم أنهم كانوا يقدسون الشمس ، وذلك — غالباً — لاعتقادهم أنه إله صغير أو صنم يمثل الإله المتعال » ، « أما النظريون فكانوا أيضاً يعترفون باليهودية وكانوا يحبون أن يعرفوا بخلفاء موسى — فكانوا أجانب لتعليم موسى »^(٣) ؛ وخلاصة ما قاله موشيم في العقيدة اليهودية في هذا العصر أن فلسفة الشرق هي عبارة عن اعتقاد أن وراء الطبيعة قوة إلهية ذات علم وعقل ، وأنها الخير كل الخير ، ونور السموات والأرض ، وأنها أزلية ، وظلت في الخفاء والسكوت أزمنة طويلة ، ثم أنتجت إرادتها الشيثين ، فاختلفت المذاهب في تسميتها ، وفي عدد ما أنتجت من اختلاط هذين الشيثين . أثرت هذه للفلسفة في العقيدة اليهودية كل التأثير ؛

(١) "Talmud, Selection from" by Polans Page, 113. & 128.

(٢) The Ecelesiastical History. by I. d. Mosheim P. 90.

Mosheim P. 96. (٣)

وظهرت في بعض الفرق المسيحية الأولى ، وكانت العقيدة المشتركة عند اليهود أن ملك الظلام مع شركائه وعماله أثرا كبيرا في أمور الكائنات والإنسان ، وكان ذلك الأثر عظيما إلى درجة لم يترك فقط قوة في يد الإله الأكبر^(١) . هكذا كانت العقيدة اليهودية في منتهى التأخر ، ولقد كان قنوطهم من خروجهم من نكبتهم ومن اشتداد المسطين عليهم داعياً أن ينتظروا قوة فوق الطاقة البشرية لتتقدم من هذه الحالة ، وقد وجدوا في عقيدة عودة المسيح المذكورة في التوراة ما كانوا يرجون . ويقول موشيم : « إن أكثرية شعب اليهود كانت تنتظر ظهور المنقذ الذي وعد به الله آباءهم ، ولكن مقاصدهم لم ترم إلى الذي وصفته التوراة ، لأنهم ما كانوا يرجون منجى الأرواح ، بل القائد القوى القادر الذي يرجع لهم حريتهم »^(٢)

جاءت آمال اليهود بأبرك الثمار ، وظهر المسيح الموعود به من بين اليهود في عائلة داود ، ونشأ في معابد اليهودية ، ولم يعرف مسيحيته ، إلى سن الثلاثين ، وإلى هذه السن لم يكن قد ألحقت به الألوهية أو شبه الألوهية . أما بعد الثلاثين لما أعلن أنه المسيح الموعود به والمنقذ من تلك المذلة فقد عرف كابن الله على عادة الساميين الذين يسمون الأبناء على اسم رب القبيلة ، وخاصة إذا لم يعرف اسم أبيه (انظر " Deity as father " R. Smith; Religion of Semites)

لم تظهر ألوهية المسيح إلا بعد ما أعلنها بواس أو سال (Saul - Paul) اليهودي العالم بفلسفة الروم واليهود إذ قال في رسالته إلى أهل كورثوس : « أى أن الله كان في المسيح مصالِحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم وواضعاً فينا كلمة

(١) Mosheim 70. وانظر التكوين الاصحاح الأول ١٦ وهي ... فعل الله النورين

العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم .

(٢) Mosheim P. 71.

المصالحة^(١) . ويدلنا هذا إلى أن نشأة عودة المسيح كانت مبنية على أنه يخرج اليهود من تلك المذلة . فأساس المسيحية هو إصلاح اليهودية وإقامة الدولة اليهودية لا أنها دين عالمي : فالمسيحية أيضاً لم ترفع تصور الإله عما كان عليه اليهود ، بل نقلت العبادة من القديس الصنم إلى عبادة الرجل . فكان عصر المسيح عصر صار فيه الرجل إلهاً عند النصارى كما حكى عنه الله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » ثم اختلف اليهود والنصارى « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله » .

هكذا كان تصور الإله عند اليهود والنصارى ، وهكذا كان تصور الإله في البيئة التي نشأ فيها بنو إسماعيل المتأخرون وطهر فيها الإسلام ، فإذا كان تصور الإله عند اليهود والنصارى كتصور الوثنيين المجاورين ، وإذا كان أهل الأديان يعبدون الشمس وتمثال مريم وعيسى ابن مريم ، فكيف تقول إن العربي الدهري بالطبع ، والوثني بالتقاليد ، كان يعتقد في وحدانية الله تحت تأثير اليهودية والمسيحية وقد ثبت أن لفظة^(٢) المسيحية في الشرق كانت الآرامية أو الشامية ، ولم يوجد أثر لاستعمال اللغة العربية في العابد المسيحية . فالعربي الجاهلي الذي لا علاقة له بفهم الفلسفة كيف يفهم فلسفة اليهود والنصارى ؟ وذلك أيضاً مما سمع عن التكلمين باللغة الآرامية . ولذلك لا نرى أثراً لنظرية اليهود والنصارى في الشعر الجاهلي مع أننا وجدنا وصف البيئة والراهب وأثراً لعقيدة أكبر الآلهة ، وكل ما استطاع أن يقال في هذا الصدد أن العربي الجاهلي لم يتأثر باليهود والنصارى في عقيدة الوحدانية كما تأثر اليهود والنصارى بوثنيتهم . وإذا التفتنا إلى أوائل عقيدة بنو إسماعيل نرى أن إسماعيل كان يوحد الله مع أبيه إبراهيم ، ثم تسكت الروايات

(١) رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس الاصحاح الخامس عدد (١٩) .

(٢) The origin of Islam in its Christien environment by R. Bell P. 17. (٢)

عن ذكر الفترة التي كانت بين وفاة إسماعيل وظهور عمرو بن مضاظ الجرهمي ،
ويذكر الرواة أن^(١) عمرو بن مضاظ هذا كان يعظ الناس ويمنعمهم عن الظلم
والمعصية في البلد الحرام ، ويذكرهم بعذاب الأمم التي أهلكتها الله تعالى . ثم نجد
بنى عدنان الذين كانوا يرحلون من واد إلى واد آخر في ارتجاع الكلاً ، وكانوا
يعبدون أحجار الكعبة وأشجارها . ثم نرى عمرو بن لحي وقد نصب الأصنام
حول الكعبة . وظل الناس في عبادة الأوثان مدة طويلة ، وسموا عبد هبل
وعبد العزى وزيد اللات ، فلما اتصلوا باليهود والنصارى وتأثروا بعقائدهم وتقاليدهم
اعتقدوا في الله اعتقاد اليهود وخططوا وثنيهم باليهودية ، فكان لكل قبيلة عربية
صنم يعبدونه ويخلفون به ، وهو ربهم المخصوص كرب قريش ورب ربيعة
ورب الشعري ، واللات والعزى ، وكان له بنات مثل إله اليهود . والمحتمل أن
لفظ الله أصبح لقباً من الألقاب الإلهية المقدسة في تصور العرب ، وأخذ يطلق
على كل فرد من تلك الأصنام ، فكان^(٢) يراد بالله تارة « هبل » على تعبير
وهوسن (Wellhausen) ، وتارة ود ، وفق الصنم الذي تنتمي إليه القبيلة .
وهناك دليل من أسطورة عربية^(٣) « لما هدموا الكعبة وبلغوا أساس إبراهيم
وجدوا في حجر من الأساس كتاباً فدعوا له رجلاً من أهل اليمن وآخر من
الرهبان فإذا فيه : « أنا الله ذو بكة حرمتها يوم خلقت السموات والأرض
والشمس والقمر ، ويوم صنعت هذين الجبلين وحففتها بسبعة أملاك حنفاء »^(٤)
فلو لم يكن الله صنماً في تصور العرب فمن كان الله ذو بكة هذا ؟ . ودليل
آخر^(٥) « قال الزبير بن العوام لأبي سفيان بن حرب : يا أبا سفيان ، قد كسر

(١) أخبار مكة للأزرقي « باب ماجاء في مسألة إبراهيم وبناء الكعبة » .

(٢) Encyclopedia of Ethic & Religion. "Arabs".

(٣) أخبار مكة ص ٢٧ .

(٤) أخبار مكة ص ٧١ « باب ماجاء في أول من نصب الأصنام »

هبل ، أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم عليك ؟ »
 فقال أبو سفيان : « دع هذا عنك يا ابن العوام ، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد
 غيره لكان غير ما كان » . فظهر من هذا أن إله محمد (صلعم) في عقيدة
 أبي سفيان بعد فتح مكة أصبح أقوى من إله قريش (هبل) لذلك تغاب عليهم ،
 كما تقول لبعض الرجال إنه أقوى من فلان ، ولا تقصد بذلك أنه الوحيد في
 العالم . ودليل آخر على أنهم كانوا ينكرون الإله المعنوي ، فقد قالوا للنبي (صلعم)
 استهزاء^(١) : « ليس من الناس أحد أضيق بلداً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك
 بما بعثك فليسير عنا » . وكذلك لم يفهم العربي المادي حتى قبيل الإسلام
 معنى الوحي بل حسبه مسا من الجن كما قالوا للنبي (صلعم) : « وإن كان هذا
 الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب » .^(٢) ولم يقتصر
 الأمر على ذلك . بل نسب أقوال الوحي إلى رجل يقال له الرحمن^(٣) . فلم يخطر
 ببال العربي أن هناك إلهاً معنوياً غير الضم المادي — نعم — كان الله فيما فهموا
 من أعظم الآلهة كما كان هبل أعظم الأصنام عند قريش ، والشور أعظم الأصنام
 في بابل ، لكن كبرياء الله لا تمنع كونه صنماً في تصورهم كما قال أوس بن حجر :
 وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إبت الله منهن أكبر^(٤)
 لذلك لا أرى الصواب في الرأي الذي يقول إن فكرة التوحيد نشأت
 طبيعية في البلاد العربية ، وكذلك أخطأ من قال إن محمداً (صلعم) لم يأت بشيء
 جديد في التوحيد ، بل دعا القوم إلى إجلال « الله » الذي كان أعظم الآلهة من
 قبل . والحقيقة أن العرب الجاهلية قبل كل شيء لم يعرفوا معنى التوحيد من
 أساسه ، لذلك لما بعث الله نبيه وأتاهم بتوحيد الله وعبادته وحده لا يشركون به

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٢ . (٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٢ .

(٣) (٤) كتاب الأصنام وديوانه ص ١٧ .

شيئاً قالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب » فهم لم يفهموا التوحيد إلا أنه جعل الآلهة إلهاً واحداً — نعم لقد وجدت فيهم رجال موحدون مثل ورقة ابن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل الذي قال :

أرب واحداً أو ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور^(١)

إلا أن أكثرهم إما تنصروا أو تهود ، وهذا لا يمكن إلا إذا عرفوا العقائد اليهودية أو النصرانية قبل ترك دينهم . ومن يعرف ما كان هذا الرب عندهم أكان ملك الظلام مثلما كان عند اليهود أو حلول الله في عيسى ابن مريم ، وقد بدأت عبادة الرجل في الزبرقان بن بدر وغيره^(٢) ، فهذه الوجدانية لا تزيد عن وجدانية اليهود والنصارى .

وخلاصة القول أن العقلية العربية حين ظهور الإسلام كانت عاجزة عن فهم الإله الواحد ، فعلمهم النبي معنى التوحيد وأسلوب تفهم صفاته ، فالتوحيد شيء وتفضيل صنم منهم على آخر شيء آخر ، لأن التفضيل عند الوثنيين كان تتبع سلطة القبيلة التي تغلب ربها على سواها ، كما نرى في إله أشور وإله مردوخ ونحو ذلك . فالعقلية العربية كانت ضالة في تعدد الآلهة ، إلى أن نبههم الله تعالى بقوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . ومن ميزات التوحيد أن يندمج آلهة القبائل والأقاليم في رب الأرباب وإله الأمة ، وتصير صفاتهم صفته ، كما صار إله أشور إله الأشوريين جميعاً . ومن ميزات أيضاً أن عقلية الأمة لا تقبل الشركاء في تدبير الكائنات مع الله ، ونحن لا نجد أثراً من تلك الميزات في الوثنية العربية — إذ كان لكل قبيلة إله مخصوص تعبده وتحلف به ، كرب قريش ورب ربيعة ولم يكن بين هذه الأرباب علاقة الحاكم والمحكوم ، ولو أصبحت علاقة

(١) أغاني ج ٣ ص ١٢٥ . (٢) أديان العرب لعثمان الجارم « عبادة العرب للانسان » .

الأبوة من هبل واللات والعزى تحت تأثير اليهود والنصارى ، ولكن الآلهة كانت مقدسة ومحترمة عند كل قبيلة بلا امتياز فكان قريش يعظمون هبل ، كما كانوا يقدسون اللات ومناة والعزى ، ولم تتخذ هذه الأرباب فيما بينهم علاقة الحكم والإدارة ، وذلك لا يمكن في القبائل التي كانت الحروب تسود فيها ، وكذلك كانوا يجعلون لله شريكا وأندادا ، فإذا جلسوا ليقسموا أنعامهم وأسلاب حروبهم قسموه بين الله وبين عم أنس وعميانس ، وما دخل في حق الله من حق عميانس ردوه عليه ، وما دخل في حق الصنم من حق الله تركوه له^(١) . وهذا يخالف أيضاً ميزات التوحيد . ولكن نجد في أقسام العرب أنهم كانوا يحلفون برب الشمس والقمر ، ورب النور والظلام ، وكان من أيمانهم^(٢) : « لا ومجرى الرياح ، ولا ومميت الرياح ، لا ومنشىء السحاب ، لا والذي أخرج الماء من الحجر والنار من الشجر^(٣) » ؛ فبعد ما عرفنا عقلية الأمة العربية وعقيدتها المتمثلة في قولهم : « وما يهلكنا إلا الدهر » نستطيع أن نفهم ما كانوا يريدون « بوالذي نفسى بيده » ، ورب النور والظلام (والشمس) ، وبمنشىء السحاب (مطرنا بنوء كذا) ، وبمجرى الرياح ومميتها^(٤) . لكن لا نستطيع أن نزع ما كانوا يقصدون « بوالذي شق الرجال للخيل والجبال للسيل » ، « وبياعث الأرواح »^(٥) . وذلك لأن كثيراً من أساطير العرب التي كانت تتعلق بتلك المعانى أصبحت نسيا منسيا ، أو قل كان العربي يشعر أحياناً بمخالق الإنسان وبياعث الأرواح ، وكان يلتفت إليه أحياناً ، وكان يشير إليه بالذى عمل كذا وكذا ، فقد يكون هذا من تراث إبراهيم وإسماعيل ، وقد يكون من وظيفة

(١) كتاب الأصنام ص ٤٣ .

(٢) إيمان العرب في الجاهلية لأبي اسحاق إبراهيم بن عبد الله .

(٣) أخبار مكة . (٤) إيمان العرب في الجاهلية .

الضمير الذي فطر عليه الإنسان ، لكنه لم يثمر ولم يخلف أثراً في حياة العرب الاجتماعية قبل ظهور الإسلام .

من هذا البحث نستنتج أن طبيعة البلاد العربية لم تدع إلى نشوء فكرة التوحيد ، وأن وحدانية اليهود والنصارى أيضاً لم تكن أكثر من وثنية العرب ، فالعرب لم يتأثروا باليهودية والمسيحية في فكرة التوحيد ، بل تأثروا بفلسفتهم الوثنية إلى حد ما ، ونهتدى منه إلى أن نقول إن الإسلام لم يتطور من درجة إلى درجة ، ولا وحدانيته مأخوذة من اليهود أو النصارى ، بل نشأ مستقلاً بذاته ، فإنه الإسلام رب العالمين ، وليس رب قريش فقط ، وهو خالق الأرض والسماء وما فيهما ، ولم يغير وحدانيته تقلب الفلاسفة كما تغيرت اليهودية والمسيحية بفلسفة الحلول والتقمص والتثليث . وهو « ليس كمثل شيء » ، وهو حي قيوم « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، بخلاف العقيدة اليهودية في تناسله ، وإله الإسلام « أحد ، صمد ، لم يلد ولم يولد » ، بخلاف إله النصارى ، وهو الإله الذي لا يشفع عنده « إلا بإذنه » بخلاف النصارى الذين يعتقدون في كفارة المسيح ، فأين إله العرب الجاهلية وأين : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم » .

الفصل السابع

أسطورة الخلق والحياة بعد الممات

قال الله تعالى في شأن أهل مكة : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » وكذلك ورد في شأنهم أيضاً : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . فبإزاء هاتين الآيتين لا أستطيع أن أقول من هو الله الذي أراد به أهل مكة أنه خالق الأرض والسموات ، إذ كان الدهر هو المهلك والدنيا هي الحياة في عقيدتهم . لكن ارباة ذكروا أن العرب كانوا منقسمين طوائف متعددة ، منهم من أنكر الخالق ، ومنهم من أقر به وأنكر البعث . أما التوراة فتقول إن بني إسرائيل ظهروا وهم يعتقدون بالإله الواحد القهار خالق السموات والأرض ، وهكذا روت العرب عن بني إسماعيل حينما افترقوا عن إخوانهم ، فليس يبعد أن بني إسماعيل اعتقدوا في وجود الله الواحد كاعتقاد إخوانهم الآخرين ، لكنهم لم يستمروا على هذه العقيدة ، بل ظنوا في الله أنه كالأصنام الأخرى — كما بينا سابقاً — فكان بنو إسماعيل — كما تذكر الروايات يتصورون الله في صورة الرجل الذي يخلق السماء والأرض والشمس بطريقة لا نعرفها ؛ لكن الطريقة كانت معروفة عند اليهود ، الذين كانوا يعتقدون أن الله فرغ من صنع الكائنات في ستة أيام ، واستراح يوم السبت ، وأخيراً خلق الإنسان وشكله على صورته كما يشكل صانع الفخار فخاره ثم تنفخ فيه روحاً ، أما فكرة هبوط آدم فهي عقيدة إسرائيلية ، ولم تكن موجودة عند البابليين الذين كانوا يصورون الإله الخالق وهو يحارب التنين الأسود (رمز

الظلام) ويقتله، ثم يشطر جثته شطرين، يتخذ أحدهما حاجزاً يمنع به المياه العليا من السقوط ويسمى تيامات. وقالوا « كان في بدء العالم ماء ثم خطر لمردوخ الإله الأعظم أن يخلق الإنسان من دمه وعظمه ليسكن الأرض ويعمرها^(١) » أما بنو إسماعيل فكانوا يعتقدون (في عصور متأخرة) في الخلق مثل البابليين الذين اعتبروا الماء أقدم الكائنات، ويظهر هذا من قول كعب الأحبار الذي قال: « كانت الكعبة غطاء على الماء قبل أن يخلق الله تعالى السموات والأرض بأربعين سنة، ومنها دحيت الأرض^(٢) » لكن التاريخ لم يذكر عنه شيئاً، وكل ما عرفناه في هذا الصدد فهو أخبار متأخرة، وكثير منها لفق على يد كعب الأحبار الذي كان يريد إدخال العقيدة اليهودية في الإسلام تحت ستار قول ابن عباس^(٣)؛ وكذلك وهب بن منبه، وعبيد بن شريفة اللذان كانا يذيعان الأفكار البابلية والفارسية في الحجاز. فانظر إلى أسطورة الخلق هذه: « إن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض، ثم نظر إليها نظرة هيبه فصارت ماء، ثم نظر إلى الماء فغلي وارتفع منه زبد ودخان وبخار، وأرعد من خشية الله، فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة . . . » وبعد ما ترك قصة خلق السموات والأرض هذه المختلطة بنظريات المذاهب المختلفة نجد: « ثم . . . الله تعالى من تحت العرش ملكاً فهبط تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه، وإحدى يديه في المشرق والأخرى في المغرب باسطين قابضتين على قرار الأرضين السبع، حتى ضبطها، فلم يكن لقدميه موضع قرار، فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن، وأربعون ألف قائمة، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه، فأحدر الله ياقوته

(١) Seven Tablets of Creation.

(٢) قصص الأنبياء ص ١٨ .

(٣) أخبار مكة ص ١ .

خضراء من أعلى درجة الفردوس ، غلظها مسيرة خمسمائة عام ، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار هذه الأرض وهي كالحسكة تحت العرش ؟ ومنخر ذلك الثور في البحر ، فهو يتنفس كل يوم نفساً ، فإذا تنفس مد البحر ، وإذا رد نفسه جزر ، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله تعالى صخرة خضراء ، غلظها كغلاظ سبع سموات وسبع أرضين ، فاستقرت قوائم الثور عليها فلم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نوناً ، وهو الحوت العظيم اسمه لوتيا وكنيته بلهوت ، واقبه بهموت فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال ، قال والحوت على البحر^(١) .

فإذا طرحنا من أسطورة الخلق العربية النظريات البابلية مثل كون الماء مبدأ الكائنات ، ومثل العدد السبع الذي كان مقدساً عند البابليين ، وشبه عقيدة يهودية كقول : « بعث الله تعالى من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض » لبقى من الأسطورة استقرار كرة الأرض على تلك الأشياء المتعددة ، وهذه كما أرى أسطورة عربية خالصة ؛ لأن العقلية العربية كما بينا لا تستطيع أن تتصور جوهراً مجرداً عن المادة في التكوين ، لذلك حينما وصلت فكرة الخلق البابلية والإسرائيلية إلى العرب رأوا أنه يجب أن يكون تحت الأرض ذات السبع طبقات شيء مادي تستقر عليه ، فذهب بهم الظن إلى أن يجعلوا الثور حامل الأرض على عاتقه ، وجعلوا تحت الثور صخرة خضراء ، وكان موضع قرار تلك الصخرة الحوت العظيم وهو بدوره كان على البحر الذي يتصوره العرب شيئاً عظيماً . ومما يؤكد أن استقرار الأرض على أشياء هو فكرة عربية ، أننا نرى الله سبحانه وتعالى ، ينيب العرب إلى ما كانوا يعجبون منه حينما يقول : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها^(٢) » .

(١) قصص الأنبياء ص ٤ . (٢) سورة الرعد .

كذلك كان من أساطير كعب الأحبار : « أن إبليس تغفل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض فوسوس إليه ، وقال له : أتدرى ما على ظهرك يا لوتيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها ، لو تفضتها أو ألقيتها عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك ، قال : فهم لوتيا أن يفعل ذلك »^(١) . فما هذا إلا تعليل الزلزلة الذى تصوره^(٢) وهب أيضاً فقال : « إن ذا القرنين أتى على جبل قاف فرأى حوله جبلاً أصفراً ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا قاف ، قال : فأخبرنى ما هذه الجبال التى حولك ، فقال : هى عروقى ، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضاً أمرنى فحركت عروقا من عروقى فتزلزلت الأرض المتصلة به » فهذه الروايات ومثلها تهدينا إلى أن الفكرة العربية — سواء كانت حديثة أو قديمة — تنتج دائماً من التعليل المادى الخالص . وهناك خرافة أخرى ، قال الربيع بن أنس : « إن سماء الدنيا موج مكفوف والثانية من صخرة ، والثالثة من حديد ، والرابعة من نحاس ، والخامسة من فضة ، والسادسة من ذهب ، والسابعة من ياقوتة بيضاء ، وكانت الكواكب معلقة من السماء كالتناديل »^(٣) وقس على ذلك أن الإنسان أيضاً عند العرب لم يخلق من دم الإله كما خلق منه عند البابليين ، ولا هبط آدم من الجنة كما قالت اليهود ، بل خلق من الأرض ذات نفسها ، فكانت فكرة أمومة الأرض معروفة وشائعة عند العرب ، كما كانت منتشرة عند الأمم جميعاً .

قال أمية بن أبي الصلت :

والأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد
وكذلك^(٤) سئل يحيى بن معاذ الرازى . أن ابن آدم يدري أن الدنيا
ليست بدار قرار فلم يطمئن إليها ؟ قال : لأنه منها خلق ، فهى أمه ، وفيها نشأ

(٢) قصص الأنبياء ص ٥ .

(٤) » » » ١٢ .

(١) قصص الأنبياء ص ٥ .

(٣) » » » .

فهي عشه ، ومنها رزق ، فهي عيشه ، وإليها يعود^(١) فهي كفاتة^(٢) ويؤيد هذا ما قيل في خلق العظاءة (سام أبرص) أنها تسمى شحمة الأرض أو شحمة الرمل ، وهي أنواع كثيرة منها الأحمر والأصفر والأخضر ، وكلها منقطة بالسواد ، وهذه الألوان بحسب مساكنها . وكذلك ذكروا عن الواق والدوال أنهما نتاج ما^(٣) بين بعض النبات والحيوان . وقالوا في خلق الجن إنها خلق من بيض متعدد — كما ذكرنا في باب الطوتمي — كل هذا يدل على أنهم كانوا يرجعون خلق كل شيء إلى الأرض ، فكانت الأرض كفاتة كما كانت أمه .

يجب بعد هذا أن نرى ماذا كانت عقيدة العرب في الحياة بعد المات ، لم يكن الإنسان حراً فيما يفعل وفيما يترك ، إنما هو آله مجبرة على السير في طريق رسمها له الدهر كما رسمها للأشجار والأحجار والكواكب وسائر أنواع الكائنات . وكذلك الخلود لم يكن بقاء روحانيا عند العرب كما ورد في تفسير الآية : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » ؛ فإنه فسر معنى نحيا بقوله : « إننا نموت ونحيا بأعقابنا »^(٤) . ووجد الباحثون في قرية حوران الخاتم الذي تدل نقوشه على أن البهائم كانت تساق إلى الأموات للأكل منها . ومثل هذا نراه في تقاليد العرب الذين كانوا يعقرون الإبل ويعلقون البلية على القبور ؛ وهذا كما أرى لم يكن مكافأة أو مخافة من أرواح الأسلاف كما قيل ، بل كانوا يذبونها عبرة لأعقابهم واحتفاظاً لتقاليدهم في فضيلة المروءة التي كانت أساس حياتهم الاجتماعية ، وأما ما ذكر في العادات القديمة من القول بأن من مات ولم يبل ما عليه حشر ماشياً ، ومن كانت له بلية حشر راكباً ، فإنه لا يتفق مع عقلية البداوة ، وليس هو من مبادئ عقائد الأمة السامية بأجمعها ، لذلك كان

(٢) الحيوان للباحظ ص ٨٧ .

(١) الحيوان للحميري ص ٩٨ .

(٤) Religion of Palestine P. 35.

(٣) تفسير الطبري .

هذا القول فكرة دخيلة في العادات العربية القديمة ، أو هو من صناعة الرواة المتأخرين الذين كانوا ذوى أغراض .

ودليل آخر على ذلك أن بابل ، وهي أقدم الأمم حضارة في بلاد العرب على الأقل لم تفكر في الحياة بعد المات ، وهناك نقش آرامى من القرن الثامن وجد في إقليم زنجيرلى في شمال الشام ، وهو يبين أن الأموات كانوا يأكلون ويشربون أمام آلهتهم^(١) ، وكان اليمنيون يدفنون تمثالا مع كل ميت في قبره ، وكانوا يكتبون على ذلك التمثال نسب الميت وأمانيه ، كما قال الهمداني في الإكليل : « ووجد رسم آخر فيه أن الشخص الذى يحمل في يده إبريقاً يسقى منه العطشان »^(٢) . وهكذا كان العرب يتصورون أن الهامة التى تخرج من رأس الميت تقول : أسقونى ، أسقونى ؛ ولذلك قال كوك : « حقا إن هناك إبهاما وسقما وغموضا فى العالم الآخر عند الساميين » .

“There is certain gloom, morbidity & absence of other world liners among Semites.”

والواقع أن العرب كانوا يقولون : « إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا »^(٣) « وقالوا إذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون »^(٤) وقالوا أيضاً « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين »^(٥)

هذا مبلغ العقلية العربية قبيل الإسلام فلما جاء الإسلام قال : « قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، فهدم بهذا المذهب الحيوى ، وغير النبي أسماء أصحابه الحيوانية (فقوض المذهب الطومى) ، ومنعت الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها (فأزال الوثنية) وعلمهم النبي : « قل هو الله أحد ، الله الصمد

Religion of Palestine P. 37. (١)

Religion of Palestine P. 39. Religion of Palestine P. 36 Foot note. (٢)

(٣) سورة الاسراء . (٤) سورة الصافات . (٥) سورة المؤمنون .

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» ، وأفهمهم أن الله فاطر السموات والأرض ؛
وأنه بدأهم من العدم فإذا أراد خلق شيء قال له : « كن فيكون » .
هذه هي عقلية الإسلام التي قضت على جميع نظريات الماديين وفلسفة الوثنيين ،
ومن أرفع من الإسلام شأنًا وأعلى منزلة في نزوج العقلية الإنسانية إذا اعترفت
بتطور العقل . وها هو العربي العارى عن التخيل ، والمادى الطبع ، والدهرى
العقيدة ، أصبح به المثل الأعلى في الوجدانية وفي تصور صفات الإله ، وفي بناء
الاجتماع الإنسانى القائم على أحسن العلاقة بين الخالق والمخلوق ، وبين الروح
والمادة . فالحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين .

**صدر في سلسلة
آفاق ثقافية (الكتاب الشهري) عام ٢٠٠٣**

الشهر	المترجم	المؤلف	عنوان الكتاب
أيار	-	صفي إسماعيل	١. العرب وتجربة للمساءة
حزيران	-	ع. آل شبلي	٢. من المجهول إلى مايا - كتاب للمستحيل
تموز	-	قدي حافظ طوقان	٣. مقام العقل عند العرب
آب	-	مجموعة من الكتاب	٤. فتاوى كبار الكتاب والأبناء في: - مستقبل اللغة العربية - نهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنية الغربية
أيلول	صلاح علمتي	ألبيرتو كوستي	٥. بابلو نيرودا
تشرين ١	-	عمر أبو ريشة	٦. مختارات
تشرين ٢	-	د. إبراهيم الككيلاتي	٧. الأوراق «مقالات مختارة في الأدب والفن والاجتماع»
كتون ١	-	فارس زرزور	٨. ٤٢ ركباً ونصف

عام ٢٠٠٤

الشهر	المترجم	المؤلف	عنوان الكتاب
كتون ٢	-	خير الدين الأسدي	٩. يا ليل
شباط	-	شكر مصطفى	١٠. حضرة الطين
آذار	-	عبد الباسط الصوفي	١١. أبيات ريفية
نيسان	عبود كلسوحة	مكسنس فيرمن	١٢. نيج «ثلج»
أيار	-	بدوي للجبل	١٣. بدوي الجبل «مختارات»

١٤ .	مسرح عربي قديم (كرلكوز)	عادل أبو شنب	-	حزيران
١٥ .	الأب والموقف القومي	محيي الدين صبحي	-	تموز
١٦ .	تاريخ الحضارة الإسلامية	ف. بارتولد	حمزة طاهر	آب
١٧ .	تاريخ الحضارة الأوروبية	كلود ديلمانس	كوايت حبيب	أيلول
١٨ .	التربية عند العرب	خليل طوطح	-	تشرين ١
١٩ .	الجمهورية المثلى	زكي الأرسوزي	-	تشرين ٢
٢٠ .	بعض قضايا الفكر العربي المعاصر	جلال فاروق الشريف	-	كتون ١

عام ٢٠٠٥

الشهر	المترجم	المؤلف	عنوان الكتاب
كتون ٢	-	جون ستيوارت ميل	٢١ . بحث في الحرية
شباط	محمد بدران	مجموعة مؤلفين	٢٢ . مقالات مختارة في الأب الإنكليزي
آذار	-	جرجي زيدان	٢٣ . مختارات
نيسان	محمد مندور	جورج ديهاميل	٢٤ . دفاع عن الأب
أيار	-	غائب فرمان طعمة	٢٥ . أم للسيد معروف
حزيران	-	د. محمد سليم سالم	٢٦ . البدائع - الجزء الأول
تموز	-	إيمان حميدان	٢٧ . فلسفة الحضارة عند هيربرت ماركيوز
آب	وجيه أسعد	كريستوف بوجون + كريستوف فيرو	٢٨ . الانتباه والنجاح للمدرسي
أيلول	دشلكر مطلق	فيرنر شبرنغر	٢٩ . كل شيء الآن كل شيء
تشرين ١	يمام بشور	مارسيل باتيول	٣٠ . مفخرة أبي بكرات طفولة
تشرين ٢	علي إبراهيم نشقير	ميغيل ده أونامونو	٣١ . الشعور المأساوي بالحياة
كتون ١	ثغر ديب	آن هاو	٣٢ . النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت)

الشهر	المترجم	المؤلف	عنوان الكتاب
كتون ٢	-	بشير يموت	٣٣. شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام
شباط	أمين محمود الشريف	أرنولد توينبي	٣٤. الحضارة في الميزان
آذار		صدقي إسماعيل	٣٥. رامبو
نيسان	أنيب يوسف شيش	جوليان باجيني	٣٦. الفلسفة موضوعات مفتاحية
أيار	عبد القادر عبد الله	أورهان بلوك	٣٧. اسطنبول التكريات والمدينة
حزيران	د. محمد عوض محمد	لاسلى أبركرومبي	٣٨. قواعد النقد الأدبي
تموز	أنطون حمصي	فرانسوا رابليه	٣٩. غرغانتوا
آب	أنطون حمصي	فرانسوا رابليه	٤٠. باتاغرونيل
أيلول	عثمان نويه	برتراند رسل	٤١. النظرة العلمية
ت ١		نديم محمد	٤٢. آلام
ت ٢		بشارة الخوري (الأخطل الصغير)	٤٣. الهوى والشباب
ك ١	محمد جديد	ستيفان تسفليخ	٤٤. لفتصار إرسموس ومأساته

عام ٢٠٠٧

الشهر	المترجم	المؤلف	عنوان الكتاب
كانون ٢	محمد جديد	إراسموس فون روتردام	٤٥ . مليح الحماسة
شباط	علي إبراهيم أشقر	خوسه أورتغا إي غاسيت	٤٦ . تمرد الجماهير
آذار		د. محمد عبد المعبد خان	٤٧ . الأساطير والخرافات عند العرب



